المبحث الثالث

دور الانحدار والانكماش

(٢٢) مصطفى الثاني ابن محمد الرابع (١١٠٦- ١١١٥هـ)، (١٦٩٥- ١٧٠٣م)

كانت فاتحة سلطنة مصطفى الثاني فاتحة حزم وعزم، فما مضى ثلاثة أيام على استواء السلطان على سرير المُلك حتَّى أعلن نيَّته أن يتولَّى قيادة الجيوش بنفسه، خلافاً لما كان عليه أسلافه المتأخرون، وحاول بعض وزرائه أن يثبطوا من عزمه هذا، فلم يفلحوا بذلك، فبدأ عهد هذا السلطان بانتصاراتٍ عديدة، حيث تمكن الأسطول العثمانيُّ من كسر أسطول البنادقة أمام جزيرة ساكس التي تمكن العثمانيون من إلحاقها بالدولة بعد هذه المعركة.

وزحف خان القرم على بولندا وأوغل فيها، أما على الجبهة الروسيَّة فقد ترك الروس حصار آزوف بعد أن فقدوا ثلاثين ألف مقاتل، وذلك في تشرين الأول سنة ١١٠٧هـ/١٦٩٥م ، ثمَّ إنَّ السلطان نفسه دخل بلاد المجر، وافتتح مدينة ليبة[١] عَنْوَةً، ثمَّ تغلب السلطان في واقعة أولاش[٢] على أمير (الساكس) قائد الجيش الألماني؛ فاشتعلت لأجل ذلك حماسة العثمانيين وصاروا يجودون بالعطايا لتجهيز الجيوش، والكتائب من المتطوعة[٣].

إلا أنَّ طالع النصر لم يستمر طويلاً على هذا النحو، فإنَّ بطرس الأول قيصر روسية عاد فافتتح آزوف، وعادت الجيوش النمساويَّة فكسرت الجيوش العثمانية

١- تقع في بلاد المجر إلى الشمال الشرقي من العاصمة بودابست.

٢- أولاش: لم أعثر عليها، وهي على كل حال في رومانيا.

٣- تاريخ الدولة، الأمير شكيب أرسلان، ص (٢٣٩).

عند نهر تيس[1]، وقُتِلَ الصدر الأعظم، وفرَّ السلطان، فدخل العدو بلاد البوسنة وذلك سنة ١١٠٩هـ/١٦٩٧م، وعاد الخطر يُحدِقُ بالسلطنة، فعوَّل السلطان على وزيرٍ جديد من آل كوبريللي، وهو الكوبريللي حسين باشا (صهر محمد باشا) وكانت الخزانة فارغةً، فجاء الصدر الجديد ورمَّم الأحوال، وحشد جيشاً جديداً عهد بقيادته إلى (دالتَبان باشا) الذي تمكَّن من استرداد البوسنة، وأجبر النمساويين على الرجوع إلى الوراء[2].

معاهدة كارلو فيتس:

أجبرت السلطنة على الموافقة على معاهدة كارلو فيتس[3] وذلك عام ١١١٠هـ/١٦٩٩م، والتي تمت بين الدولة والنمسا وروسيا والبندقية وبولندا، فترك العثمانيون بموجبها بلاد المجر كافةً وإقليم ترانسلفانيا للنمسا، كما تنازلوا عن آزاق لروسيا التي ازداد خطرها، كما أرجعوا لبولندا إقليم كامنيك[4] وبعض الأقاليم الأخرى، وتنازلت للبندقية عن إقليم (دلماسيا) وقسم من جزيرة المورة[5]، وبذلك فقدت الدولة العثمانية قسماً كبيراً من أراضيها، وازداد تسلُّط الغرب عليها منذ ذلك التاريخ، فاتفق الأوروبيين أمامها، ومن ثمَّ بدؤوا العمل على تقسيمها، وهو ما يسمَّى بالمسألة الشرقيَّة القائمة على خوفهم من انتشار الإسلام في أوروبا وزيادة قوته[6]. وكان من شروط تلك المعاهدة؛ أن كلَّ الدول التي

١- نهر في المجر ينبع من أوكرانيا ويتحد مع الدانوب في يوغوسلافيا.

٢- المصدر السابق نفسه.

٣- كارلو فيتس: مدينة يوغوسلافية واقعة على نهر الدانوب.

٤- تقع في جنوب بلاد أوكرانيا على حدود رومانيا.

٥- موره: هي شبه الجزيرة الكبيرة التي تشكل الجزء الجنوبي من بلاد اليونان.

٦- تاريخ الدولة، د. حسون، ص (١٤٢).

كانت تدفع الجزية قد أعفيت منها[1].

كان تنازل العثمانيين عن أرضيهم بداية الانسحاب العثماني من أوربة، كما أنه يسجل الانتقال إلى عصر التفكك والاضمحلال السريع.

عزل السلطان:

ثار الإنكشارية على السلطان، وقرروا عزله، وتوفي بعد ذلك بأربعة أشهر، وكان عند وفاته في التاسعة والثلاثين من عمره[2].

١- الدولة العثمانية، د. الصلابي، ص (٣٤٢).

٢- المصدر السابق نفسه.

(٢٣) أحمد الثالث ابن محمَّد الرابع
(١١١٥- ١١٤٣هـ)، (١٧٠٣- ١٧٣٠م)

بقيت في عهده راية الجهاد مرفوعةً، واستطاعت الدَّولة أن تعيد (المورة، وآزاق)، وواصلت جهادها ضدَّ روسيا، وأنزلت بها ضربةً كادت تكون قاصمةً، حينما حاصر المجاهدون العثمانيون قيصر روسيا. ولكن انتهت تلك الأحداث بتوقيع معاهدة (فلكزن) في جمادى الآخرة عام ١١٢٣هـ، حيث ترتب عليها إخلاء مدينة آزاق للروس، وعدم التدخل في شؤون القوزاق، وعلى إثر هذه المعاهدة عزل السلطان أحمد الثالث الصدر الأعظم ((بلطة جي باشا))، واستمرَّ الجهاد ضدَّ الروس ورأت هولندا وإنجلترا أنَّ من مصلحَتَهُما إيقاف الحرب ولذلك تدخلوا ووقعت معاهدة أدرنة عام ١١٢٥هـ/١٧١٦م[١]؛ التي تنازلت فيها روسيا عن كل ما استولت عليه من سواحل البحر الأسود، ولكنَّها تخلَّت في الوقت نفسه عمَّا كانت تدفعه إلى حكام القرم[٢].

وحينما تولَّى علي باشا منصب الصدارة أعلن الحرب على البندقيَّة فاسترجع ما فقدته بلاده من بلاد المورة وكريت، فاستعانت البندقيَّة بالنمسا، التي أعلنت الحرب على الدولة العثمانية فدخل النمساويون بلغراد بعد أن قتلوا الصدر الأعظم واحتلوا بعض المواقع الأخرى، لتنتهي المعارك بينهما بتوقيع معاهدة صلحٍ بين الطرفين عام ١١٣٠هـ، أعطيت بموجبها للنمسا مدينة بلغراد، وجزءاً من

١- الدولة العثمانية، د. جمال عبد الهادي، ص (٧٦).

٢- الدولة العثمانية، د. إسماعيل ياغي، ص (١١٧).

صربيا، وآخر من الأفلاق وأرجعت بلاد المورة إلى الدولة، وسميت تلك المعاهدة بمعاهدة «بسارو فيتس[1]»[2].

وفاة السلطان، وبعض أعماله:

من إصلاحات السلطان أحمد الثالث تجديد الترسانة، وإنشاء المدارس الكثيرة، وإدخال المطبعة، وتأسيس دارٍ لطباعة في إستانبول، وترقية الصناعات، وإنشاء معامل للنسيج، وتأسيس فرقة للإطفاء، ومن أعماله استرجاع المورة وقلعة آزاق، وفتح عدَّة ولايات من بلاد العجم، وألحقت داغستان بالدولة العثمانية عام ١٧٢٢م[3].

ثمَّ كان أن خُلع السلطان بسبب ثورات الإنكشارية، ونُصِّبَ مكانه ابن أخيه.

١- تقع إلى الجنوب الشرقي من مدينة بلغراد.

٢- تاريخ الدولة، د. حسون، ص (١٤٣).

٣- المصدر السابق نفسه، ص (١٤٤).

(٢٤) محمود الأول ابن مصطفى الثاني
(١١٤٣- ١١٦٨هـ)، (١٧٣٠- ١٧٥٤م)

من أبرز الأحداث في عصره انتصار العثمانيين على النمسا التي أغارت على بلاد البوسنة، وصربيا والأفلاق وطردوهم إلى ما وراء نهر الدانوب وذلك عام ١١٥٢هـ، ثمَّ عُقدت معاهدة بلغراد التي ألغت معاهدة (بسارو فيتس) سابقة الذكر، حيث استردت الدولة مدينة بلغراد، والصرب والأفلاق[١]، أمَّا الروس فقد تعهدوا بهدم قلاع ميناء آزاق، وعدم تجديدها، وعدم إنشاء سفن تجارية أو حربية في البحر الأسود. وهكذا فإنَّ معاهدة بلغراد هذه أعادت للدولة شيئاً من هيبتها بفضل الوزراء، والقادة الأقوياء، ثمَّ عقدت الدولة معاهدةً عسكريةً مع السويد ضدَّ روسيا[٢].

وفاة السلطان، وبعض أعماله:

توفي السلطان محمود الأول عام ١١٦٨ هـ، فجأةً، وهو يمتطي جواده بينما كان عائداً من صلاة الجمعة عند دخوله باب السراي.

كان محمود الأول متصفاً بالعدل والحلم والميل للمساواة بين الرعيَّة، واتسع نطاق الدولة في عهده، ومحي عار معاهدة (بسارو فيتس)، وأسس أربع مكتبات في العاصمة، وعدَّ مؤرخو العثمانيين عصره أفخر عصر ترقَّت فيه المعارف السياسية لدى العثمانيين، وعندما دُمِّرَ عددٌ كبيرٌ من مساجد العاصمة بسبب الحريق والزلزال، بادر فوراً لإعادة تجديدها، ودفع أموالاً طائلة لترميم المنازل المدمَّرة[٣].

١- الأفلاق أو فالاسيا هو اسم قديم لإحدى مقاطعات جمهورية رومانيا الحالية وعاصمتها بوخارست. وقد كان هذا الاسم الذي أطلق عليها في العهد العثماني.

٢- المصدر السابق نفسه، تاريخ الدولة العثمانية، إسماعيل سرهنك، ص (٢٠٨، ٢١٢).

٣- تاريخ الدولة، د. حسون، ص (١٤٥).

(٢٥) عثمان الثالث ابن مصطفى الثاني
(١١٦٨-١١٧١هـ)، (١٧٥٤-١٧٥٧م)

تولَّى الحكم وعمره ٥٨ سنة، وبويع له في جامع أبي أيوب الأنصاري، وهنَّأه سفراء أوربة، استمرَّ حكمه ثلاث سنوات فقط، لم تحدث فيها حروب ولا نزاعاتٌ خارجيَّة، حيث اهتمَّ بالإصلاحات الداخليَّة، وأصدر أوامر بمنع كلِّ ما يخالف الشرع الشريف، وقضى على الثورات والانتفاضات التي قامت في أنحاء الدولة، ولاسيّما ثورات الأكراد[١].

ويذكر عنه: أنَّه كان يتحسس أحوال الرَّعية ليلاً متنكراً[٢].

السلطان عثمان الثالث

١- الدولة العثمانية، د. إسماعيل ياغي، ص (١٢١).

٢- الدولة العثمانية، د. جمال عبد الهادي، ص (٧٩).

(٢٦) مصطفى الثالث ابن أحمد الثالث
(١١٧١- ١١٨٧هـ)، (١٧٥٧- ١٧٧٤م)

حدثت في عهده بعض المعارك الحاسمة بين الدولة وروسيا وكادت الغَلَبَةُ تكون إلى جانب الروس لولا مساعدة البارون المجري (دي توث) الذي كان قد دخل في خدمة الدولة العثمانية، وقلب موازين الأمور، وهزم الروس في عدَّة مواقع[١].

حينها أيقنت روسيا أنها لن تستطيع هزم الدولة العثمانية وجهاً لوجه، لذلك لجأت إلى طرق ماكرة ألا وهي دعم الثورات الداخلية، لمحاولة تمزيق الدولة من الداخل، فدفعوا والي مصر من قبل دولة الخلافة وهو ((علي بك الكبير)) إلى الخروج على الدولة العثمانية، وذلك عام ١١٨٣هـ/١٧٧٠م ففعل، وأمر بأن يخطب باسمه على المنابر[٢].

وفي جزيرة (باروس) تمَّ لقاءٌ بين الروس، ومبعوثين من قبل (علي بك)، وتمَّ التخطيط الماكر لتدمير الدولة من الداخل، بحيث يكون فيها علي بك هو مخلب القط، ومعه طاهر العمر والي مدينة عكا، وبناءً عليه قاد علي بك أبناء مصر المسلمين لقتال قوَّات العثمانيين في بلاد الشام، ودخل سورية عَنْوةً عام ١١٨٥هـ، فخرج محمد بك الشهير بأبي الذهب وقاتل جيوش علي بك وانتصر عليه، وقتله هو والخائن الآخر طاهر العمر بعد حصار عكَّا[٣].

١- انظر: الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي ،ص (١٢٢) / د. حسون، ص (١٤٦).
٢- الدولة العثمانية، د. الصلابي، ص (٣٤٨).
٣- الدولة العثمانية، د. جمال عبد الهادي، ص (٨٠).

عندما عجزت دول أوروبا عن مقاتلة الدولة العثمانية في جبهات الوغى، لجأت إلى تفجير الدولة من الداخل عبر ضعفاء النُّفوس ممَّن ينتسبون إلى الإسلام ويُظهرون شعائره ويضيِّعون مفهوم الولاء والبراء في بحر شهواتهم وأطماعهم وإلا كيف يكون ذلك، والله تعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الممتحنة: ١]. وقوله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨]. إنَّ المسلم الصادق مع نفسه وربِّه وأمته لا يقف مع الرُّوس الأرثوذكس ضدَّ المسلمين العثمانيين ويستحلُّ دماءهم. إنَّ أعداء الأمَّة الإسلاميَّة يلجؤون دوماً إلى إشعال نار الفتنة داخل ديار الإسلام لتدمير قوَّة الأمَّة البشرية والاقتصادية والأخلاقية فتصبح مؤهلةً للسقوط بيد الأعداء[1].

وفاة السلطان، وبعض صفاته:

كان السلطان مصطفى الثالث من السلاطين المجاهدين، توفي في ٨ ذي القعدة في عام ١١٨٧هـ، عن عمرٍ يناهز ٥٧ عاماً تقريباً[2]. وقد تصدَّى للهجمات الروسيَّة على الدولة، وأنزل بهم هزائم عدَّة، حيث استمرَّت الحروب العثمانية الروسية فترة طويلة حيث بدأت في عام ١٧٦٨م، وانتهت في ١٧٧٤م[3].

لقد كان مصطفى الثالث مصلحاً كبيراً جاء في زمن بلغت فيها الإدارةُ أبعد ما يتصوره العقل من الخلل، فلم يكن يفكر في حفظ شأن السلطنة غير السلطان

١- الدولة العثمانية، د الصلابي، ص (٣٤٨).

٢- انظر: السلاطين العثمانيون، ص (٧٢).

٣- الدولة العثمانية، د. الصلابي، ص (٣٤٩).

وحده، وكان الوزراء كلُّهم تحت تأثير الإنكليز يريدون الصلح، والمدفعيَّة العثمانية تقهقرت إلى الدرْك الأسفل، بعد أن كانت هي المدفعيَّة الأولى في أوربة. فأنشأ السلطان مدرسةً للمدفعية والهندسة ومدرسةً للبحريَّة بعد أن بلغت البحريَّة أقصى حدود الخلل، فعالج أمراض السلطنة بصبرٍ عجيب وأصلح جانباً كبيراً مما كان ينوي إصلاحه، وقد فكَّر في خرق برزخ السويس ولكنَّ المنيَّة سبقته إلى ذلك[1].

١- تاريخ الدولة، الأمير شكيب أرسلان، ص (٢٥٤).

(٢٧) عبد الحميد الأوّل ابن أحمد الثالث
(١١٨٧- ١٢٠٣هـ)، (١٧٧٤- ١٧٨٩م)

تولَّى الحكم بعد وفاة أخيه مصطفى الثالث، وكان محجوزاً في قصره مدَّة حكم أخيه.

الحرب العثمانية الروسية:

كانت الجبهة الروسية العثمانية دائمة التوتر والصراع، ففي عهد السلطان عبد الحميد اجتازت القوَّات الروسيَّة نهر (الطونة) والتقى العثمانيون بالروس في مدينة (شوملا) فانهزم العثمانيون، وطلبوا الصلح الذي عُقِدَ في مدينة كينارجه في بلغاريا، وتمَّ الاتفاق في عام ١١٨٧هـ /١٧٧٤م، على استقلال تتار القرم، وكذلك أصبح للمراكب الروسية بمقتضى نصوص المعاهدة حريَّة الملاحة في البحر المتوسط والبحر الأسود، وأن تُبنى لروسيا كنيسةٌ في ضاحية (بيرا) في استانبول فعاد ذلك على الدولة بأوخم العواقب، وبذلك فقد نالت روسيا أمانيها، بسبب جهل السلطان، ووزرائه[١].

وحين التمعُّن في هذه الشروط يمكن ملاحظة ما يلي:

١- إنهاء السيطرة العثمانية على البحر الأسود ن وتهيئة الأسس الدبلوماسية المقبلة للتدخل الروسي في القضايا العثمانية الداخلية.

٢- أصبحت بلاد القرم مستقلةً، ورعاياها لا يلحقون الدولة العثمانية إلا دينياً فقط.

٣- سمحت المعاهدة للروس بالحصول على امتيازات مهمة ضمن البلاد العثمانية، مما سمح لها بحماية الأرثوذكس في أيِّ مكانٍ في الدولة العثمانية[٢].

١- تاريخ الدولة، د. حسون، ص (١٤٨).

٢- انظر: العثمانيون والروس، د. حسون، ص (٨٥).

ولم يكتف الرُّوس بذلك، بل واصلوا تآمرهم وفاجؤوا الدولة العثمانية بدخول قوَّاتهم بلاد القرم- التي سبق أن وافقوا على استقلالها- وذلك بسبعين ألف جندي غير مبالين بمعاهدة (كينارجه) المذكورة آنفاً[١].

فثارت الدولة العثمانية من جديد وأرسل الباب العالي مذكَّرةً إلى السفير الروسي بالآستانة، وذلك في صيف عام ١٢٠٠هـ فيها عدَّة مطالب منها: التنازل عن حماية بلاد جورجيا التي تخضع لسيادة العثمانية وتسليم حاكم الأفلاق العاصي للدولة. فرفضت روسيا المذكرة، فأعلن الباب العالي الحرب وحبس السفير الروسي[٢].

فأخذ الروس يحصنون ميناء سباستبول[٣] وأنشأوا ترسانة عظيمة، حيث كانت ملكتهم كاترينا[٤] تخطط للوصول إلى استانبول[٥].

وفاة السلطان وأثرها على الأحداث:

في تلك الأثناء توفي السلطان عبد الحميد الأول، فضعفت عزيمة الجند، ودخل اليأس قلوبهم، فاستغل الأعداء ما حدث وتضافرت جهودهم لإضعاف العثمانيين، حيث استولى الروس على مدينة بندر[٦] الحصينة واحتلُّوا معظم الفلاخ والبغدان ودخل النمساويون بلغراد، وبلاد الصرب التي ردَّت بعد ذلك بمقتضى معاهدة (زشتوي)[٧].

١- انظر: الدولة العثمانية، د. جمال عبد الهادي، ص (٨٢).

٢- انظر: العثمانيون والروس، د. حسون، ص (٨٦).

٣- مدينة على شاطئ البحر الأسود جنوبي شبه جزيرة القرم.

٤- الملكة كاترين الثانية (٢ مايو ١٧٢٩- ٦ نوفمبر ١٧٩٦)، إمبراطورة روسيا من ٢٨ يونيو ١٧٦٢.

٥- تاريخ الدولة، د. علي حسون، ص (١٤٨).

٦- بندر: تقع في الاتحاد السوفييتي سابقاً، شرق رومانيا.

٧- انظر: العثمانيون والروس، د. حسون، ص (٨٧).

(٢٨) سليم الثالث ابن مصطفى الثالث
(١٢٠٣ - ١٢٢٢هـ)، (١٧٨٩ - ١٨٠٧م)

تولَّى السلطنة بعد وفاة عمِّه عبد الحميد الأول، وقد تسلم السلطة واليأس مُستول على العباد نظراً لتدهور حالة البلاد، فقد تحالف الروس والنمساويون، وتغلبوا على العثمانيين مرَّتين واستطاع كلٌ منهما أن يحتل ما ذكرناه سابقاً.

ولكنَّ السلطان سليم الثالث شرع في إحياء الرُّوح المعنويَّة في نفوس جنده، واعتمد على تاريخ الدولة العثمانية، وما قامت به من أعمالٍ بطوليَّة، ففي مراسم توليه عرش الدولة قام السلطان بإلقاء خطبة حماسيَّة أمام قادة الدولة، وتكلم عن سبب هزائمهم المتأخرة أمام أعدائهم، وبيَّن أنها بسبب ابتعادهم عن دينهم، وعدم اتباع كتابهم، وسنَّة نبيِّهم[١].

> لقد أدرك السلطان المأساة التي يعيشها شعبه من جراء الهزائم المتوالية على الدولة، ولكي يخفف من حدة الغضب والنفور رفض مساعي الصلح وقرر التوجه بنفسه على رأس جيش نحو نهر الدانوب[*].

ولم ييأس السلطان من تخاذل جنوده، بل كان يحدوه الأمل بنجاح المهمَّةِ في حال قيادته للجيش، فأصدر أمره بتحريك القوَّات العثمانية عبر البغدان، والأفلاق- أي رومانيا- حتى وصلت مقدمات جيشه إلى نهر ((رمينيك)) عند حدود النمسا، وهناك حدث ما لم يكن في الحسبان؛ حيث تمكن الجيشان الروسي والنمساوي من مباغتة الجيش العثماني على غفلة، وانتصرا عليه، وسميت تلك المواجهة بمعركة ((يوزا)) أو ((رمينك)) نسبة إلى النهر الذي وقعت عنده المعركة[٢].

١- انظر: تاريخ سياسي، دولة علية عثمانية، كامل باشا، (٢/٢٥٠).

*- الدولة العثمانية، د. الصلابي، ص (٣٥٣).

٢- انظر: موقف أوربة من الدولة العثمانية، ص (٧٣).

الثورة الفرنسية ومعاهدة زشتوي:

لاحت الثورة الفرنسيَّة في الأفق، وبدأت أخطارها تظهر على مختلف الأصعدة في أوربَّة، وأوجدت شعوراً قويَّاً عند الدول الأوربيَّة بأنَّ الوقت قد حان للتعاطف مع الدولة العثمانية خوفاً من استفحال الثورة النَّابليونيَّة، وهيمنة فرنسا على شؤون القارة الأوربيَّة[1].

فقد أدَّى خطر انتشار الثورة الفرنسيَّة التي هددت عروش ملوك أوربا إلى طلب النمسا الصلح مع الدولة العثمانية الذي ردَّت بموجبه بلاد الصرب وبلغراد ومعظم ما احتلَّته إلى حظيرة الدولة، وكذلك تمَّ الأمر مع باقي الدول الأوربيَّة التي رأت ضرورة التوصل إلى معاهدةٍ مع الدولة العثمانية لجمع الشمل الأوربيِّ أمام الحركة النابليونية التَّوسعيَّة، وتمَّ عقد معاهدة ((زشتوي)) في ٢٢ ذي الحجة من عام ١٢٠٥هـ الموافق ١٧٩١م[2].

الثورة الفرنسية تعتبر فترة تحولات سياسية واجتماعية كبرى في التاريخ السياسي والثقافي لفرنسا وأوروبا بوجه عام. حيث ابتدأت الثورة سنة ١٧٨٩ وانتهت تقريباً سنة ١٧٩٩. وعملت الثورة الفرنسية على إلغاء الملكية المطلقة، والامتيازات الإقطاعية للطبقة الارستقراطية، والنفوذ الديني الكاثوليكي.

أمَّا الرُّوس فقد استمروا بعدائهم، وشنِّ الحملات، واستولوا عَنْوَةً على مدينة إسماعيل[3]، وذلك عام ١٢٠٥هـ، وارتكبوا فيها الفظائع والأعمال

١- المصدر السابق نفسه.

٢- المصدر السابق نفسه، ص(٨٢)

٣- إسماعيل: مدينةٌ في الاتحاد السوفيتي السابق وأوكرانيا اليوم، وهي بالقرب من الحدود الرومانية والبحر الأسود.

الوحشيَّة وقتلوا النساء والأطفال؛ حيث تقدَّم الجنرال ((سواروف)) وحاصر قلعتها الحصينة، وقطع عنها الإمدادات ثمَّ استولى عليها بعد قتالٍ عنيف، ودام القتل، والنَّهب ثلاثة أيام بلياليها، سقط خلالها ما ينوف عن ثلاثين ألف شهيد، وانتهى الأمر بعقد معاهدة ياش[1] وذلك عام ١٢٠٦هـ الموافق ١٧٩٢م، وجرى بموجبها أن امتلكت روسيا بلاد القرم نهائيًّاً، وبعض الأقاليم الأخرى[2].

ما بعد زشتوي:

التفتت الدولة بعد ذلك إلى إصلاح شؤونها الداخلية ولاسيَّما الجيش، فأصلحت الثغور وبنت القلاع والسفن الحربية الحديثة وصنعت المدافع، وترجمت المؤلفات العسكريَّة الحديثة ووضعت أنظمةٌ للجيش على أحدث طرازٍ، وأسست الفرق العسكريَّة النظاميَّة الحديثة بقصد الاستغناء عن الإنكشارية فيما بعد[3].

إلا أنَّ ذلك أثار جنود الإنكشارية، ورغم أنَّ السلطان أصدر أمراً بإلغاء الفرق العسكرية الجديدة، إلا أنَّ الثُّوار قرروا عزل الخليفة وخلعه من الحكم[4].

فدخل شيخ الإسلام على السلطان سليم متذللاً منخفض الرأس قائلاً: يا مولاي، قد حضرتُ بين يديك برسالة محزنة، أرجو قبولها لتسكين الهيجان، وليس يخفى على عظمتكم أنَّ عموم العساكر نادوا باسم السلطان مصطفى ابن عمِّك سلطاناً عليهم، ولا سبيل إلى المقاومة، فالتسليم لأمر الله أوفق، وأسلم من كلِّ شيء، فأظهر السلطان تجلُّداً و لم تبدُ عليه علامات الكدر من هذا الحديث

١- نسبة إلى مدينة ياشي، وهي تقع في الشمال الشرقي من رومانيا بالقرب من الحدود الرومانية الروسية.

٢- تاريخ الدولة، د. حسون، ص (١٤٩).

٣- المصدر السابق نفسه.

٤- الدولة العثمانية، د. إسماعيل ياغي، ص (١٢٧).

بل قبل كلام الشيخ، وتنازل عن السلطة في يوم ٢١ ربيع الأول عام ١٢٢٢هـ، وجلس بعده مصطفى الرابع[١]. ورغم ذلك فقد حدثت مشاكل في عهده أدَّت إلى الإطاحة به بعد أن حكم سنةً واحدةً فقط[٢].

الحملة الفرنسية على مصر

أسبابها:

نابليون بونابرت من أعمال جاك لوي دافيد

استغلَّت فرنسا انشغال الدولة العثمانية في حروبها مع النمسا، وروسيا، وحالة الوهن التي أصابتها نتيجة تلك الحروب، والمشكلات الداخليَّة، كما أغراها الموقع ذو الأهمية الخاصة لبلاد مصر، ووجود طريق الهند، ولذلك فقد أراد النفوذ الفرنسي اكتساب جبهة صلبة ضدَّ بريطانيا في تلك المنطقة خاصةً، وكان قد أزعجهم موقفها ضدَّ الثورة الفرنسية آنذاك، كما أنَّ الحروب التي سبق أن نشبت بين الدولتين خرجت فرنسا بنتيجتها، وقد خسرت معظم مستعمراتها ولا سيَّما في الهند، وكندا، وظنَّت فرنسا أنَّ احتلالها لمصر سيزيد من هيبتها أمام إنكلترا[٣].

١- تاريخ الدولة، د. حسون، ص (١٦١).

٢- المصدر السابق نفسه، ص (١٥٩).

٣- تاريخ الدولة، د. حسون، ص (١٥٠).

الاستعدادات الحربيَّة:

صدرت الأوامر لنابليون بونابرت في عام ١٢١٣هـ، باحتلال مصر دون إعلانِ حرب، وخفية عن أعين بريطانيا، فجَّهز الجيش في مدينة طولون[١]، وقوامه ٣٦ ألف محارب مدرَّب، بالإضافة إلى ١٠ آلاف بحار، وبصحبته ٣٠ سفينة حربيَّة، ومراكب، وسفن صغيرة أخرى، بالإضافة ١٢٢عالماً من مختلف الاختصاصات. وما إن وصل مالطة[٢] حتَّى احتلَّها سريعاً، واصطحب بعض العرب المقيمين هناك كمترجمين، ثمَّ وصل إلى ميناء الإسكندريَّة، وأنزل الجند قربها، ثمَّ احتلَّها، وسار إلى القاهرة التي دخلها عَنْوةً، وعسكر فيها هو وجنوده حتى امتلأت المدينة بهم، وفتحوا فيها عدَّة دكاكين، وخمَّاراتٍ ومقاهٍ[٣]، وهو أمرٌ لم يكن موجوداً من قبل.

كان الفرنسيون والغربيون بصفة عامة يدركون أن السر في قوة المسلمين يتمثل في جانبين مهمين: الأول هو تمسكهم بالدين، والثاني في وحدة بلادهم في ظل حكومة إسلامية مهيبة.

حِيلَةُ نابليون:

أعلن نابليون، وبعض رجاله اعتناقهم للإسلام، وبدا ذلك واضحاً في المنشور الأوَّل الذي أعلنه نابليون على شعب مصر، حيث حاول أن يحتال عليهم ببعض الكلمات حيث قال: «أيها المصريون قد قيل لكم: إنني ما نزلت لهذا

١- مدينة شهيرة في جنوب فرنسا على بالبحر الأبيض المتوسط.

٢- مالِطة (مالطا) دولة أوروبية، وهي عبارة عن ثلاث جزر صغيرة تقع في البحر المتوسط.

٣- المصدر السابق نفسه، ص (١٥٠، ١٥١).

الطَّرف إلا بقصد إزالة دينكم فذلك كذبٌ صريحٌ فلا تصدِّقوه وقولوا للمغترِّين إنني ما قصدت إليكم إلا لأُخَلِّصَ حقكم من يد الظالمين، وإنني أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى، وأحترم نبيَّه والقرآن العظيم»[1].

وحينما وصل نابليون إلى عكَّا أصدر بياناً إلى يهود العالم مطلقاً عليهم اسم ((الورثة الشرعيين لفلسطين)) لإقامة دولة يهوديَّة على أرض فلسطين؛ أفلا يكشف ذلك عن علاقة وثيقة بين نابليون الَّذي تستَّر بالإسلام، واليهود الَّذين خطَّطوا، وقاموا بما تسمَّى الثورة الفرنسية[2].

المواجهة:

كان الهجوم الفرنسي على مصر يُعد أوَّل هجوم على ولاية عربيَّة من ولايات الدَّولة العثمانية في التاريخ الحديث، وعلى الفور أعلن السلطان سليم الثالث الجهاد على الفرنسيين (١٢١٣هـ/١٧٩٨م)، فاستجاب لدعوته المسلمون في الحجاز والشام وشمال إفريقية[3]. ولسنا بصدد التفاصيل الحربيَّة التي تحرَّكت فيها جيوش الطَّرفين العثماني والفرنسي، وإنَّ ما يهمنا هو آثار تلك الحملة التي باءت بإخفاق الفرنسيين، حيث انتهت آثارها الماديَّة في ١٢١٦هـ/١٨٠١م.

دلائل الحملة، وآثارها:

لقد أحسَّ المسلمون بالهزيمة الحقيقيَّة من جرّاء هذه الحملة؛ حيث وضع نابليون في فترة إقامته في مصر قانوناً جديداً يُحكَمُ به المسلمون بغير شريعة الله، قانوناً مستمدَّاً من التشريع الفرنسي، وحصر تشريع الله في أمور الأحوال

١- الدولة العثمانية، د. الصلابي، ص (٣٦٢).

٢- انظر: الدولة العثمانية، د. جمال عبد الهادي، ص (٨٦).

٣- الدولة العثمانية، د. الصلابي، ص (٣٦٤).

الشخصيَّة؛ من زواج وميراث، وكانت تلك هي المرَّة الأولى في تاريخ المسلمين التي يحكمهم فيها قانون غير قانون الله، لقد كان الصليبيون يهاجمون الأراضي الإسلاميَّة، فمرة يقيمون بها بضعة أشهر، ومرة يقيمون فيها لسنوات عدَّة، بل كانوا ينشئون فيها دويلات صغيرة، ولكنَّهم لم يجرؤوا قطُّ في أيَّة مرَّة أن يضعوا قانوناً من عندهم يحكمون به المسلمين[1].

لقد بدا واضحاً اختلافُ الدول الكبرى على الولايات العربيَّة التابعة للدولة العثمانيَّة؛ ومن أجل ذلك سلكت هذه الدول المتآمرة طرائقَ عدَّة، لتُسهِلَ على نفسها دخول جيوشها إلى البلاد العربيَّة دون مقاومة، وأوجَدَتْ لذلك عملاءَ وجواسيسَ تملأُ النُّفوسَ رغبةً بالتَّطور الأجنبي الَّذي حمل بين طيَّاته أفكاراً وعقائد تنافي العقيدة الإسلاميَّة الحنيفةَ من دورِ الخمر، والدَّعوة لتحرر المرأة من حجابها الإسلامي وترسيخ المفاسد الاجتماعيَّة الأوربيَّة بين الشباب العربيِّ المسلم.

١- المصدر السابق نفسه، ص (٣٧٣).

(٣٠) محمود الثاني ابن عبد الحميد الأوّل (١٢٢٣-١٢٥٥هـ)، (١٨٠٨-١٨٣٩)

تولَّى الحكم وعمره أربعٌ وعشرون سنة، استفاد من إقامته الجبريَّة مع سليم الثَّالث، حيث أطلعه الأخير على خطط الإصلاح، إلَّا أنَّ السلطان الجديد أرغم في البداية على الانحناء أمام رغبات الإنكشارية، فأمر بإلغاء كلِّ الإصلاحات حتَّى يرضيهم إلى أن تحين له الفرصة لتطبيق، وتنفيذ تلك الخطط، وكان محمود يتذرَّع بالصبر انتظاراً لساعة الخلاص من الإنكشارية الَّذين هدَّدوا كيان الدولة العثمانية، ولكنَّ الفرصة لم تتح له ذلك قبل مرور عدَّة سنوات ولاسيَّما أنَّ عهده قد امتلأ بالحروب والتطورات المهمَّة التي استنزفت معظم جهوده وكثيراً من إمكانيَّاته[١].

أمَّا الحروب الخارجيَّة؛ فكان أن ساءت العلاقة بين روسيا وفرنسا، وكادت تقع الحرب بينهما، فطلبت روسيا الصُّلح مع الدولة العثمانية، وعُقِدَت بين الطَّرفين معاهدة بخارست[٢] عام ١٢٣٧هـ/١٨١٢م، التي نصَّت على بقاء الأفلاق والبغدان وبلاد الصرب تابعةً للدولة العثمانية، وقد مكَّن الصلح السلطان محمود من القيام ببعض الإصلاحات، والقضاء على الثورات والتمرُّدات في الدولة[٣].

إلغاء الإنكشاريَّة:

فسدت طبيعة الإنكشاريِّين، وتغيَّرت أخلاقهم، وانغمسوا في الملذَّات، والمحرَّمات وشقَّ عليهم أن ينفروا في برودة الشتاء، وهم الذين أربكوا الدَّولة؛ إذ

١- انظر: الدولة العثمانية، د. إسماعيل ياغي، ص (١٢٧، ١٢٨).

٢- سميت هكذا نسبةً إلى بوخارست (بالرومانية: București) هي عاصمة رومانيا السياسية والصناعية.

٣- تاريخ الدولة العثمانية، إسماعيل سرهنك، ص (٢٢٦، ٢٢٨).

وضعوها في حالةٍ من الفوضى بقتلهم السلاطين أو خلعهم، إلى أن قيَّض الله السلطان محمود الثاني عام ١٢٤١هـ للتخلص منهم[١].

ففي صباح ٩ ذي القعدة تقدَّم السلطان ووراءه جنود المدفعيَّة، وتبعهم العلماء، والطلبة إلى ساحة (آت ميداني)، حيث اجتمع العُصاة هناك يثيرون الشَّغب وقيل: إنَّ السلطان سار معه شيخ الإسلام قاضي زادة طاهر أفندي، والصدر الأعظم سليم باشا أمام الجموع التي كانت تزيد على ٦٠,٠٠٠ نسمة [٢].

تأسست فرق الإنكشارية زمن السلطان أورخان وبفضل الله وجهد السلطان وأخيه علاء الدين نظمت هذه الفرق وأُحسن تدريبها ،حتى غدت من أهم فرق جيش الدولة، وزاد عددهم حتى صار لا يعول في الحروب إلا عليهم، فكانوا من أهم عوامل امتداد سلطة الدولة، إلا أنهم خرجوا فيما بعد عن حدودهم وتعدوا واستبدوا مما جعلهم سبباً في تأخر الدولة وتقهقرها.

ثمَّ أحاطت المدفعيَّة بالميدان واحتلَّت المرتفعات ووجَّهت قذائفها على الإنكشارية، فحاولوا الهجوم على المدافع ولكنَّها صبَّت حممها فوق رؤوسهم فاحتموا بثكناتهم هروباً من الموت، فأحرقت وهدِّمت فوقهم وبذلك انتصر السلطان عليهم، وفي اليوم التالي صدر مرسومٌ سلطاني قضى بإلغاء فئتهم، وملابسهم، واصطلاحاتهم من جميع بلاد الدولة، وإعدام من بقي منهم هارباً إلى الولايات، ثمَّ قَلَّد حسين باشا الذي كانت له اليد الطُّولى في إبادتهم قائداً عاماً، وبدأ بعدها نظام الجيش الجديد[٣].

١- تاريخ الدولة، د. حسون، ص (١٠٧، ١٠٨).

٢- الدولة العثمانية، د. الصلابي، ص (٣٧٧).

٣- تاريخ الدولة، د. حسون، ص (١٦٩).

وبذلك أصبح السلطان محمود حرًّا في تطوير جيشه، فترسَّم خطى الحضارة الغربية، فاستبدل الطَّربوش الرُّوميَّ بالعمامة، وتزيَّا بالزَّيِّ الأوربيِّ، وأمر أن يكون هو الزِّيَّ الرسميَّ لكلِّ موظفي الدولة العسكريين، والمدنيين، فكان هو أوَّل من فعل ذلك من سلاطين آل عثمان[1] ويبدو واضحاً من هذا التَّصرفِ أثرُ الهزيمة النفسيَّة لديه.

وفاة السلطان، وبعض أعماله:

تعرَّض للإصابة بعدوى السل عام ١٨٣١م، بعد حوادث باعثة على الأسى وجِّهت ضدَّه، فكانت وفاته في ١٩ من شهر ربيع الآخر من عام ١٢٥٥هـ، وعمره لا يتجاوز السادسة والخمسين.

كانت حياته سلسلةً من الكفاح الشَّاق لإنجاز شيءٍ لبلاده، وبنى الكثير من المدارس الجديدة، وفي عهده شيَّدت العمارات الحديثة، كما شيَّد جسر ((أونقاباني))[2] أثناء سني حكمه، وأنشئت في عهده أيضاً المدرسة الشرعيَّة الإسلامية في مكة المكرمة، وجدد بناء المسجد الأقصى[3].

١- المصدر السابق نفسه.

٢- هو ما يسمى اليوم بجسر أتاتورك، على القرن الذهبي.

٣- تاريخ الدولة، د. حسون، ص (١٧٩).

(٣١) عبد المجيد ابن محمود الثاني
(١٢٥٥-١٢٧٧هـ)، (١٨٣٩-١٨٦١م)

كان السلطان عبد المجيد الأول ضعيف البنيَّة، شديد الذكاء، واقعيَّاً، ورحيماً، وهو من أجلِّ السلاطين قدراً، أحبَّ الإصلاح وأدخل التنظيمات الحديثة، كما أدخل إصلاحات عديدة في الجيش، وترقَّت في أيَّامه العلوم والمعارف واتسعت دائرة التجارة، وشيَّدت الكثير من المباني الفاخرة ومُدَّت في عهده أسلاك الهاتف وقضبان السِّكك الحديد[١].

وأسست الدولة جامعةً باسم دار الفنون، وجعلت التعليم ابتدائياً وإعدادياً وعالياً، وقامت بإصلاحاتٍ كثيرة[٢]. وهكذا بدأ عهدٌ جديدٌ سُمي عهد التنظيمات الخيرية العثمانية التي كان من بينها احترام الحرِّيَّات العامة، والممتلكات، والأشخاص بغض النظر عن معتقداتهم الدينيَّة، ونص فيه على مساواة جميع الأديان أمام القانون[٣].

وقد أنشأ الصدر الأعظم رشيد باشا مجلساً للنوَّاب، ووضع للدولة قانوناً للعقوبات وفق الشرائع الحديثة واستقدم رجلاً فرنسيَّاً ليضع قانوناً حديثاً للدولة واشتدَّ في تطبيق قوانينه شدَّة حازمة ضمنت احترام الناس لها، وأعقب ذلك بإنشاء بنك جديد للدولة، وإصدار أوراق ماليَّة[٤].

١- تاريخ الدولة، د. حسون، ص (١٩٨).

٢- تاريخ الدولة، الأمير شكيب أرسلان، ص (٢٩٣، ٢٩٤).

٣- انظر: الانحرافات العقدية والعلمية، د. علي الزهراني، (٢/٢٦٦).

٤- صدرت بدون رصيد معدني ومن ثمَّ فقدت قيمتها، إذ لم ينصحهم المستشارون الأجانب حول ذلك/ د. الصلابي، ص (٤١٩).

لكن هذا الانقياد الشديد للفكر الغربي أثار المسلمين في أرجاء الدولة؛ إذ رأوا أنَّها تساوي بهم النصارى واليهود، وتستبدل بالشريعة الحنيفة قوانين النّصارى وأحسوا كذلك أنَّ حكومة رشيد باشا لا تكاد تأتي أمراً إلا راعت فيه مصلحة النصارى، وحرصت ألا تمسهم بأذى، فنفروا من ذلك نفوراً عظيماً، ولم يجد السلطان ورجال دولته من بدٍّ في إسقاطه، وعزله أمام مظاهر السخط الشعبي، وخوفهم من وثوب المسلمين، وثورتهم[1].

التقليد والتبعية:

لقد انتفع الرسول ﷺ بدلالة أبي الأريقط الدُّؤلي في طريق هجرته إلى المدينة مع أنَّه كافرٌ، فاتَّضح من هذا الدليل: أنَّ الموقف الطبيعي للإسلام والمسلمين من الحضارة الغربيَّة هو أن يجتهدوا في تحصيل ما أنتجته من النَّواحي العلمية، ويحذروا ممَّا جنته من التَّمرد على خالق الكون جلَّ وعلا، فَتَصلُحَ لهم الدنيا والآخرة، والمؤسف أنَّنا نعكس القضيَّة؛ فنأخذ منهم الانحطاط الخلقي، والانسلاخ من الدين، ولا نتعلم شيئاً مما أبدعوا فيه من النَّواحي العلمية، فخسرنا بذلك الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين[2].

لقد جعل الله في شريعته الكمال؛ فقد نهى عن اتِّباع غيرها من الأهواء، والنظم البشريَّة المضلة، ونهى عن اتِّباع الكفار، فقال: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[الجاثية: ١٨-٢٠].

١- انظر: الشرق الإسلامي، حسين مؤنس، ص (٢٥٦).

٢- انظر: التقليد والتَّبعيَّة، د. ناصر العقل، ص (٤١).

وفاة السلطان، وبعض صفاته:

كان سلطاناً كريم الأخلاق، عادلاً حليماً، وكانت الرَّعية العثمانية من جميع الطبقات تحبه وتحترمه، ولذلك أسف على موته الجميع[1].

١- تاريخ الدولة، الأمير شكيب، ص (٢٩٧).

لا يقاس النجاح بالموقع الذي يتبوأه المرء في حياته.. بقدر ما يقاس بالصعاب التي يتغلب عليها.

(٣٢) عبد العزيز بن محمود الثاني
(١٢٧٧ - ١٢٩٣هـ)، (١٨٦١ - ١٨٧٦م)

تولَّى الحكم بعد أخيه، وفي عهده تفجَّرت ثورةٌ في جزيرة كريت، ثمَّ أخمدت، وتمَّ فتح قناة السويس[١] عام ١٢٨٥هـ/١٨٦٩م، بواسطة شركة فرنسيَّة، وصدرت مجلة الأحكام العدلية، وقانون التجارة البحريَّة، وكان عبد العزيز أول سلطان يزور أوربة عندما دعاه نابليون الثالث سنة فتح قناة السويس إلى معرض باريز مع سائر الملوك، ففكَّر السلطان في الاستفادة من خلاف الدول الأوربيَّة فيما بينها آنذاك، لكنَّه وجد أنها تتفق جميعها ضدَّ الدولة العثمانية لأنَّها دولةٌ إسلاميَّةٌ، غير أنَّهم يختلفون فيما بينهم حسب مصالحهم الخاصة[٢].

وكان من أهم الإصلاحات الإداريَّة إنشاء محكمةٌ عليا قضائيَّة، كما أنشئ مجلس شورى الدولة على النسق الفرنسي، ومن أهم اختصاصاته مناقشة الميزانيَّة[٣].

١- قناة السويس: هي قناة مائية تقع إلى الغرب من شبه جزيرة سيناء، وهي عبارة عن ممر ملاحي بطول ١٦٣كم في مصر بين بورسعيد على البحر الأبيض المتوسط والسويس على البحر الأحمر. وتقسم القناة إلى قسمين، شمال وجنوب البحيرات المرّة. استغرق بناء قناة السويس ١٠ سنوات.

٢- انظر: تاريخ الشعوب الإسلامية، ص (٤٩٠، ٤٩٢).

٣- الدولة، د. إسماعيل ياغي، ص (١٥٩).

أمَّا في مجال التعليم، فقد أسست مدرسةٌ ثانويَّةٌ هي مدرسة ((غلطة سراي)) كان برنامج الدراسة فيها خيراً من برامج المدارس الأخرى، وكان الغرض منها إعداد فئة من الشباب يكون قادراً على حمل عبء الوظائف العامة، وقد أقبل الطلاب عليها، حتَّى بلغ عددهم عام ١٨٦٩م ستمئة طالب من ديانات مختلفة[١].

على أنَّ أهم مآثره اعتنائه بالأسطول، ففي زمانه كان للدولة قوَّةٌ بحريَّةٌ عظيمة وكانت هي الدولة الثالثة في البحر[٢].

عزل السلطان عبد العزيز، وخيانة الأنفس الضعيفة:

كان السلطان قد زار أوربة، ورأى اتفاق وتآمرِ الدول الأوربيَّة على دولة الخلافة فحاول أن يستفيد من خلافاتهم، ويُنشِئ صداقةً مع روسيا، فبدأ يكثر من دعوة السفير الروسيِّ إلى استانبول، فخافت الدول الأوربيَّة، وبدأت تشيع الشائعات عنه في التَّبذير، والإسراف ، واستطاع مدحت باشا [٣] أن يعزله، ثمَّ قام مع عصابته بقتله[٤].

١- المصدر السابق نفسه.

٢- تاريخ الدولة، الأمير شكيب، ص (٢٩٨).

٣- مدحت باشا: رجلٌ من يهود الدونمة، روَّجت له الدعاية الماسونيَّة على أنَّه البطل العظيم حامل لواء الإصلاح والحريَّة، كان من مؤسسي جمعية الاتحاد والترقي، التي حملت شعار الماسونيَّة نفسه، وانكشفت جوانب هذا اليهودي للسلطان عبد الحميد الثاني، فألقى القبض عليه، وعزله، ونفاه فيما بعد، ولقد اعترف أثناء محاكمته باشتراكه في عزل وقتل السلطان، وهذا أمرٌ معروفٌ تاريخيَّاً ومدوَّنٌ في الوثائق / اليهود والماسونيَّة لعبد الرحمن الدوسري، ص (٧٠، ٧١).

٤- الدولة العثمانية، د. جمال عبد الهادي، ص (١١٠).

ولكن لماذا قتل السلطان:

يعود سبب قتل السلطان عبد العزيز إلى رفضه للدساتير الغربيَّة برمتها، وكذلك عاداتها البعيدة عن البيئة الإسلاميَّة، وتمكنه من إصلاح أحوال الدولة إلى درجةٍ كبيرة، ولاسيَّما في المجال العسكري، حيث استبدل الأسلحة القديمة بأخرى جديدة، واستورد أفضلها من مصانع أوربة، وشكَّل الفرق العسكريَّة لأبناء العشائر، والقبائل من كل الولايات، وسلَّح القلاع والحصون بأحدث المدافع، واشترى المدرَّعات، وشيد عدَّة معامل لصنعها، وعادت دار صناعة (إزميت) إلى ما كانت عليه من المجد، وأمر بوضع ميزانيَّةٍ منضبطة، وألغيت القوائم الماليَّة، وسوَّت بذلك الدولة جميع ديونها، وأصبحت المعاملة بالنقود، وانتظمت الأحوال الماليَّة[1].

يذكر أن السلطان عبد العزيز كان قوي البنية شديد القوة، ولذلك عندما أرادوا اغتياله أرسلوا له أربعة مصارعين فأتوه في «الحريم السلطاني» وهو نائم فبركوا عليه فنهض عليهم وما استطاعوا طرحه حتى قام أحدهم بأخذ مقص كان بالقرب منه فقطع عروق السلطان فتمكنوا منه.

لقد هال الدول الأوربية رؤية ما حدث على يد هذا السلطان في وقتٍ قصيرٍ؛ فتعرقلت مخطَّطاتهم في القضاء على الرجل المريض- الذي استيقظ من غفلته- لذا رأوا تدبير مؤامرة خلعه، ثمَّ قتله[2].

١- الدولة، د. الصلابي، ص (٤٣٨).

٢- تاريخ الدولة، د. علي حسون، ص (٢٠٥، ٢٠٦).

(٣٣) مراد الخامس ابن عبد المجيد
(١٢٩٣هـ / ١٨٧٦م) مدة ولايته ٩٣ يوماً

كان على جانبٍ كبيرٍ من الذكاء، والثقافة التركيَّة، والغربيَّة، كما أبدى اهتماماً بالعلوم، والشؤون الأوربية، والتقى ببعض الأوربيين، وانخرط في سلك الماسونيَّة، وكانت أن أصابته الدهشة، والفزع عند إيقاظه بعد منتصف الليل عند خلع السلطان عبد العزيز، وكانت صحته في تدهور مستمر في الوقت الذي كان مدحت باشا يحاول أن يعلن الدستور الوضعي بدلاً من الشريعة الإسلامية أثناء مرضه ، ونتيجة لذلك خلع من منصبه بقرار من شيخ الإسلام[١].

وبعد عزله تعافى من مرضه العقليِّ، وبقي على قيد الحياة حتى توفي عن عمرٍ يناهز الرابعة والستين[٢]. لقد أثَّر الشباب من أعضاء جمعية الاتحاد والترقي على مراد الخامس، فانتسب إلى المحفل الماسونيِّ، وأدمن شرب الخمر، وتشبع بالأفكار الغربية العلمانيَّة[٣].

وقد قال عنه السلطان عبد الحميد: «كان من طبيعته أن ينخدع بمن يبتسمون في وجهه، دون أن يفكر في المعقول، وغير المعقول، حتَّى إنه بسبب ذلك لم يكن يخطر على باله عدم لياقة اشتراكه وهو خليفة المستقبل في المحفل الماسونيِّ، وتقدير المصيبة التي ستنجم عن ذلك»[٤].

١- الدولة، د. إسماعيل ياغي، ص (١٧٧، ١٧٨) / تاريخ الدولة، د. حسون، ص (٢٠٩).

٢- المصدر السابق نفسه.

٣- المصدر السابق نفسه.

٤- انظر: والدي السلطان عبد الحميد، ص (١٧٨).

عندما أقوم ببناء فريق فأني أبحث دائماً عن أناس يحبون الفوز وإذا لم أعثر على أي منهم فأنني أبحث عن أناس يكرهون الهزيمة
(روس بروت)

(٣٤) عبد الحميد الثاني ابن عبد المجيد (١٢٩٣-١٣٢٦هـ)، (١٨٧٦-١٩٠٩م)

تمهيد:

عبد الحميد هو السلطان الرَّابع والثَّلاثون من سلاطين آل عثمان، تولَّى عرش الدَّولة وهو في الرَّابعة والثَّلاثين من عمره؛ إذ ولد في ١٦ شعبان عام ١٢٥٨ هـ / ١٨٤٢م[١].

ماتت والدته وهو في العاشرة من عمره، فاعتنت به الزَّوجة الثانية لأبيه وكانت عقيماً، فأحسنت تربيته وبذلت له من حنانها، كما أوصت بميراثها له، وقد تأثر السلطان عبد الحميد بهذه التَّربية وأعجب بوقارها وتديُّنها، وكان لهذا انعكاسٌ على شخصيته طوال عمره[٢].

خدمته للأمة الإسلامية:

الدكتور علي حسون يتحدث عن إنجازاته[٣].

لقد خدم الخليفة عبد الحميد الأمَّة الإسلاميَّة مدَّة ثلاثة وثلاثين عاماً، وعلى الرغم من ضعف الدَّولة العثمانيَّة في عهودها الأخيرة، وتكالب أعدائها

١- الدولة العثمانية، د. الصلابي، ص (٤٤١).
٢- المصدر السابق نفسه.
٣- تاريخ الدولة العثمانية، د. حسون، ص (٢٦١-٢٦٤).

عليها من جميع الجهات استطاع أن يقوم بخدمات جلَّى فاقت ما قام به أقرانه من السلاطين المتأخرين.

في مجال التعليم والثقافة: قام بإنشاء دار العلوم السياسيَّة، والجامعة بفروعها كافة، ودور المعلمين والمعلمات، ومدارس اللغات، ومدرسة الفنون النسويَّة، والمدارس الإعداديَّة، والثانويَّة في كل الولايات، وجعل تعليم اللغة الأجنبيَّة إلزاميَّاً من المرحلة الإعداديَّة، وافتتح متحف الآثار الشرقيَّة، ومكتبة بايزيد، ومكتبة يلدز، ومدرسة الطب فكان عدد الخريجين عام ١٣٠٣هـ، الموافق ١٨٢٥م، (٣٩٥) خريجاً من بينهم (٢٩٥) خريجاً من سكان الولايات.

وفي مجال الخدمات الصحيَّة والاجتماعيَّة: أسس مستشفى الأطفال، ودار العجزة من ماله الخاص، وأنشأ مركز البريد، ومدَّ أنابيب مياه الشرب للعاصمة وأنشأ دار النفوس العامَّة، والغرف الزراعيَّة والتجاريَّة، ومدَّ خطوط السكك الحديديَّة من دمشق للمدينة المنوَّرة بطول ١٣٢٧كم، وقد استغرق انجازها سبع سنين، وبتكلفة ٣ ملايين جنيه.

وفي مجال الإصلاحات العسكريَّة: استقدم الخبراء الألمان لتدريب الجيش وفق الأساليب الحديثة، وأرسل البعثات للخارج، وجهز الجيش بالأسلحة الحديثة.

وفي مجال الصحافة والنشر: زاد عدد الصحف على نحوٍ ملحوظ، ونذكر منها الصحف الآتية: حقائق، وقت إقدام، ترجمان حقيقة.

سياسته مع العرب: كانت في غايةٍ من الود والمحبَّة، وكان يرسل الهدايا كلَّ سنة لشيوخ العشائر، كما أنَّه افتتح مدرسة العشائر في استانبول، وألَّف كتائب الزحوف العربيَّة واتخذها حرساً خاصاً له وهي التي حازت إعجاب الأجانب، وقد أخلصت له في أشد المحن. وكان يعامل قادة العرب باحترام عظيم حينما

كانوا يزورون العاصمة، وكان يعين بعضهم في المراكز العليا مثل عزت باشا العابد الذي كان السكرتير الثاني له مدة ثلاث عشرة سنة، وقد نظر إلى العرب من خلال عقيدته الدينية القوميَّة.

ولنضرب مثلاً عن بعض إصلاحاته في ولاية سورية، وبعض البلاد العربيَّة: فقد توسعت خطوط البرق على نحو ملحوظ، وبلغت مراكز البريد والهاتف في الولاية- أي سورية- في عام ١٣١٨هـ (٢٥) مركزاً للبريد و(١٨) مركزاً للهاتف وجرى في عهده بناء دار الحكومة في دمشق، وجر مياه عين الفيجة إليها، وأنشأ الثكنة الحميدية (جامعة دمشق اليوم)، وأنشأ حي المهاجرين بسفح جبل قاسيون. وفي مجال إصلاح الكعبة المشرَّفة قام بفرش باطنها بالرخام، ووُجِدَ تقرير رسمي لإصلاحها يحمل وثائق وخرائط عن ترميم الجُدُر وتجديد الرخام وتزيين اللوحات الخطيَّة بالذهب المذاب، وإحضار أعمدة رخاميَّة.

ولقد عامل أقليات الدولة العثمانيَّة معاملةً لائقةً فدرَّس الأكراد في مدرسة العشائر، ورقي بعضهم إلى مناصب عليا.

لقد كان الخليفة عبد الحميد مسلماً متديِّناً شديد التمسك بالإسلام غيوراً عليه، ومن المعروف أنَّه لم يوقع أية مرسوم سلطانيَّ قط إلا وهو متوضئ، وعندما عزلوه- بمؤامرةٍ ماسونيَّة- لم يقل إلا كلمة واحدةً: ((إنها إرادة الله وقدره)).

زيارته إلى أوربة:

لقد قام الخليفة عبد الحميد بزيارة أوربة مع عمه عبد العزيز وذلك سنة ١٨٦٧م، وكان عمره ٢٥عاماً، واقتنع الأمير عبد الحميد في هذه الرحلة: أنَّ فرنسا دولة لهو، وإنجلترا دولة ثروة وزراعة وصناعة، أمَّا ألمانيا فهي دولة نظام، وعسكريَّة، ولقد تأثر الأمير عبد الحميد بهذه الرحلة، ودفعه ذلك التَّأثر إلى

الاهتمام بإدخال المخترعات الحديثة في دولته في مختلف نواحي الحياة، والأمثلة على ذلك كثيرة بالإضافة لما ذكرناه منها: شراؤه غوَّاصتين، وكان هذا السلاح جديداً، وأدخل التلغراف إلى بلاده من ماله الخاص، وأدخل إلى البلاد أول سيارةٍ، وأول دراجةٍ، ولكنه وقف بحزمٍ ضدَّ سريان الفكر الغربي في البلاد[1].

الدستور والخلافة:

ذكرنا سابقاً نبذةً عن محاولات مدحت باشا إعلان ما سمي بالدستور أثناء خلافة السلطان عبد العزيز وفشله، ثم كيف حاول إعادة الكرة في عهد السلطان مراد، وعدم تمكنه أيضاً، أمَّا وقد تولى الصدارة في عهد عبد الحميد تحت ضغطِ الدول الأوروبيَّة ليفسح لهم المجال في نشر الأفكار الغربيَّة، فشكل مدحت لجنة مؤلفة من ستة عشر موظفاً وعشرة من العلماء وقائدين كبيرين من الجيش لوضع مشروع الدستور الذي استوحي من الدستور البلجيكي وذلك في عام (١٢٩٣هـ/١٨٧٦م)[2].

وقد نصَّ على إطلاق لفظ العثمانيين على جميع الرعايا، وعلى الاعتراف بالحريَّة الشخصية، واعتبار الإسلام دين الدولة بعد أن كان الإسلام هو دستور الدولة، كما نصَّ على إقامة مجلسين تتألف منهما السلطة التشريعية هما المبعوثان (النواب) والشيوخ (الأعيان)[3].

إنَّ الخليفة عبد الحميد كان ضدَّ الحكم بالدستور الذي يعرف في المصطلح العثماني باسم ((المشروطيَّة)) أي الاشتراط على الحاكم بتحديد سلطاته، على اعتبار أنَّ هذا فكر وافد من الغرب، ولذلك كان ضدَّ المنادين به، ورائدهم مدحت باشا.

١- السلطان عبد الحميد الثاني، د. محمد حرب، ص (٥٧).

٢- انظر: الدولة العثمانية، د. الصلابي، ص (٤٤٤).

٣- تاريخ الدولة العثمانية، د. حسون، ص (٢٥١).

ومن ثمَّ لم ينفذ الخليفة ذلك الدستور، بل بالمقابل أقال مدحت باشا عام ١٢٩٤هـ؛ باعتباره مرتكباً للخيانة العظمى ونفاه، وقد ثبتت اتصالاته بالإنكليز والتآمر معهم ضدَّ الدولة العثمانية[١].

لا يتحمل هموم السلطنة إلا السلطان:

لقد اتُّهِمَ الخليفة عبد الحميد بأنَّه أنشأ جهاز مخابرات خاصاً به، وحاول أعداؤه أن يُثيروا الرأي العام حوله من جرّاء هذا التصرف.

يقول الخليفة عبد الحميد عن هذا الموضوع: «كان جدي السلطان سليم الثالث يصيح قائلاً: ((إنَّ أيدي الأجانب تتجوَّل فوق كبدي، وعلينا أن نرسل السفراء إلى الدُّول الأجنبيَّة لِنقلِ أساليب التقدم الأوربي، ولنعمل سريعاً على تعلم ما وصلوا إليه)) بينما كنت أحسُّ أنا أيضاً بأيدي هؤلاء الأجانب، ليست فوق كبدي، وإنما في داخله، إنَّهم يشترون صدوري العظام، ووزرائي، ويستخدمونهم ضدَّ بلادي كيف يحدث هذا؛ وهم الذين أنفقت عليهم من خزانة الدولة، ولا أستطيع معرفة ما يعملونه، وما يدبرون له، ويعدُّون؟. نعم أنا أسست جهاز المخابرات، وأنا أدرته، لقد أسسته لا ليكون أداةً ضدَّ المواطن، ولكن لكي يعرف، ويتعقب هؤلاء الذين خانوا دولتي، في الوقت الذي كانوا يتسلمون رواتبهم من خزانتها، وفي الوقت الذي كانت النعمة العثمانيَّة تملؤهم حتَّى حُلُوقهم»[٢].

كان جهاز الخليفة- خلال ثلاثين سنة- يخبر السلطان فور ظهور كلِّ حركةٍ، ولذلك تمكن السلطان من إخماد كل تمرُّد داخلي في حينه[٣].

١- تاريخ الدولة، د. حسون، ص (٢٥١).

٢- مذكرات السلطان عبد الحميد، ص (١٦٠).

٣- الدولة العثمانية، د. إسماعيل ياغي، ص (١٨٩).

الحرب الروسية العثمانية:

كانت روسيا ترغب في الوصول إلى المياه الدافئة بسبب عوامل دينيَّة واقتصاديَّة وقد نصَّ بطرس الأكبر في وصيَّته للروس في الفِقْرتين التاسعة والثانية عشرة على ضرورة الصراع الحضاري ضدَّ العثمانيين إلى أن تنتهي الدولة العثمانية من الوجود[1].

حيث يقول بطرس الأكبر في الفِقْرة (٩): «نقترب من القسطنطينية، والهند بقدر الإمكان، فمن يملك القسطنطينية فقد ملك العالم، بناءً على ذلك ينبغي ملازمة الحرب مع العثمانيين». وفي الفِقْرة (١٢) يقول: «وبعد التسلط على الممالك العثمانية، نجمع جيوشنا، وتدخل أساطيلنا بحر البلطيق، والبحر الأسود، ونشرع في التفاوض مع فرنسا ودولة النمسا في قسمة العالم بيننا»[2].

بطرس الأكبر أو بيتر (١٦٧٢- ١٧٢٥)

يعتبر بيتر العظيم أحد أعظم من حكموا روسيا على مدار تاريخها، وقد قاد سياسة التغريب وسياسة التوسع التي حولت روسيا القيصرية إلى الإمبراطورية الروسية والتي باتت إحدى أهم القوى على مستوى أوروبا، وهو مؤسس مدينة سانت بطرسبرغ والتي بقيت عاصمةً لروسيا على مدى أكثر من قرنين من تاريخها، خلفته في الحكم زوجته كاترينه الأولى. كما أجرى عدة إصلاحات في الإدارة المالية والصناعية والمجتمع. كما أسس جيشاً حديثاً وبنى أسطولاً بحرياً عظيماً لروسيا؛ حيث كان هدف بطرس الأكبر آنذاك جعل روسيا دولة أوروبية سياسياً وثقافياً.

١- الدولة، د. الصلابي، ص (٤٥٤).

٢- التحفة الحليميَّة، إبراهيم حلمي بك، ص (٢٤١).

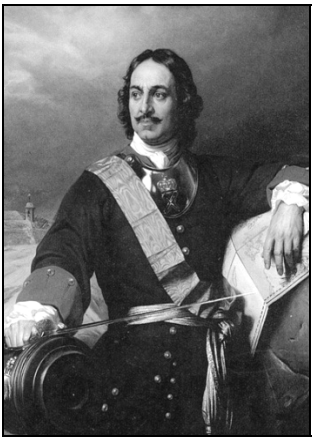

بطرس الأكبر

اهتمت روسيا بتلك الوصيَّة؛ حيث كثرت الثورات بدعم من روسيا والدول الأوروبيَّة في البلقان واليونان وغيرها من الأقاليم العثمانية، ولم تكتف بذلك، بل عملت أيضاً على قيام دول مستقلة مثل رومانيا، وبلغاريا، والصرب، واليونان. ودخل العثمانيون في حرب طاحنة مع الروس، وعبرت الجيوش الروسيَّة نهر الدانوب، واستولت على بعض المدن التَّابعة للعثمانيين والتي تقع في بلغاريا حالياً، ولكنَّ القائد العثماني الشجاع الغازي (عثمان باشا) تصدَّى لهم بكل شجاعة، فردَّهم على أعقابهم منهزمين، فأعادوا الهجوم بقوَّة أكثر كثافةً، ومع ذلك نجح القائد العثماني في التصدي للروس مرَّةً أخرى، ولقيَ من جرّاء ذلك تكريماً من السلطان على بطولته[1].

ثمَّ ازداد عدد الجنود الروس ليتجاوز ١٥٠ ألف مقاتل، مقابل قرابة ٥٠ ألف مقاتل عثماني، ومع ذلك لم يكتف العثمانيون بالدفاع والصمود في مواقعهم، بل أعدوا خطَّةً رائعةً لهجوم معاكس على خطوط العدو المحاصر لهم طالبين بذلك إمَّا النصر، وفكَّ الحصار، أو الشهادة.

١- الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص (٤١٨).

وقاد عثمان باشا قوَّاته التي هجمت على الأعداء، وهم يهللون، ويكبرون، فسقطت أعدادٌ منهم شهداء على أيد قوَّات الروس، وأصيب القائد العثماني ببعض الجراح، فسرت شائعات قويَّة بين الجند باستشهاده، ففتَّ ذلك في عضدهم، وانتهت المعركة بنصر الروس، وذلك عام ١٢٩٤هـ، أواخر سنة ١٨٧٧م، وأسر القائد عثمان باشا، وعُمِلَ بكرم وسخاء ذلك لشدة إعجاب الروس ببسالته[١].

وأمام تلك الهزائم العثمانية في أوربة، وآسيا اضطرَّت الدولة العثمانيَّة للدخول في هدنة مع الروس، وقبول المفاوضات معهم، حيث وقعت بين الطرفين معاهدة سان ستفانو عام ١٨٧٨م؛ حيث وقعها ((صفوت باشا)) عن الدولة وهو يبكي، وكان لا بدَّ بالضرورة أن تحتوي هذه المعاهدة على شروط مجحفة بالدولة العثمانية[٢].

لم يكن الخليفة عبد الحميد راضياً في الأصل بدخول هذه الحرب، لذلك لم يصدِّق على هذه المعاهدة، وقام بجهود سياسية، حتى أقنع بريطانيا في الوقوف إلى جانبه، وبذلك ضمن عقد مؤتمر آخر (مؤتمر برلين) لتخفيف آثار معاهدة سان ستفانو من ناحية، وإخافة روسيا بمنافستها بريطانيا، ومن ثمَّ قلَّلت البنود الخاسرة في المعاهدة الأولى، وبالفعل انعقد مؤتمر برلين عام (١٣٠٥هـ/١٨٨٧م)[٣].

وقد ذكر بعض المؤرخين: أنَّه في كواليس مؤتمر برلين عرض (بسمارك) المستشار الألماني تقسيم الإمبراطورية العثمانية على مذبح السلام الأوربي، فعرض على بريطانيا مصر وعلى فرنسا تونس، والشام، وعلى النمسا البوسنة

١- المصدر السابق نفسه.

٢- السلطان عبد الحميد، ص (١٤٤).

٣- الدولة، د. الصلابي، ص (٤٥٨).

والهرسك، وغير ذلك من أملاك السلطان، غير أنَّ هذه العروض لم تدرج في مقررات المؤتمر[1].

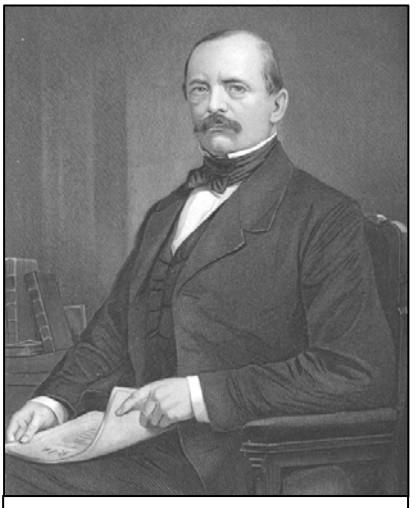

أوتو فون بسمارك

أوتو فون بسمارك رجل دولة وسياسي ألماني ولد في ١٨١٥، شغل منصب رئيس وزراء بروسيا من سنة ١٨٦٢ حتى سنة ١٨٩٠. من أبرز أعماله توحيد الولايات الألمانية في مملكة واحدة سميت المملكة الألمانية أو «الرايخ الألماني الثاني».

وبعد ذلك اتفقت الدولة العثمانية مع بريطانيا على أن تتخلى لها عن قبرص، وتؤدي بريطانيا للدولة خراجاً سنويًّاً عن هذه الجزيرة، وبمقابل هذا التخلي تعهدت بريطانيا للدولة بأنَّه إن تجاوزت روسيا حدود تركية من جهة آسيا، تكون بريطانيا مساعدةً لها[2]. وإذا نظرنا إلى حروب روسيا مع الدولة العثمانية سنجد أنها كانت تطبخ، والآخرون كانوا يأكلون[3].

الاحتلال البريطاني لمصر:

بعد الهزيمة التي لقيها محمد علي باشا عام ١٢٥٦هـ، أصبح لإنجلترا النصيب الأوفر في تصدير بضائعها لمصر دون دفع رسوم تذكر، ثمَّ انتقلت السلطة بعد

١- في أصول التاريخ العثماني، ص (١٩٥)، د. إسماعيل ياغي، أحمد مصطفى عبد الرحيم.
٢- تاريخ الدولة، الأمير شكيب، ص (٣٠٣).
٣- المصدر السابق نفسه.

محمد علي إلى حفيده عباس باشا الذي تسلَّم السلطة في عام ١٢٦٦هـ، فتراجع عن خطَّة جده وشدَّد ارتباطه مع الباب العالي، واحتقر الثقافة الغربيَّة، وحاربها، وعرقل حفر قناة السويس لإدراكه لما ستجره من متاعب لمصر، ولكن المنيَّة سرعان ما عاجلته تحت ظروفٍ غامضة، وتولى الحكم أحد أولاد محمد علي الصغار وهو محمد سعيد باشا ذو الميول الغربية فقام بمنح دي ليسبس[١] عام ١٢٧١هـ، امتياز حفر القناة، وشقت القناة على حساب موارد مصر، وبأيدي أبنائها حيث قضى منهم نحو الـ٢٠ ألف عامل حتفهم، ثمَّ في عام ١٢٨٠هـ، خلفه إسماعيل باشا الذي كان يرغب بجعل مصر قطعةً من أوروبا، وفي عام ١٢٨٦هـ، احتفل بفتح القناة بعد أن اضطر الباشا إلى الاقتراض من البنوك بربا فاحش، ودخل صيف ١٢٩٩هـ، وعندها كانت البلاد معرضةً إلى خطر إنكليزي محقق[٢].

فقد كان في الجيش المصري عنصران؛ أحدهما عربي مصري، والآخر تركي، فحصل خلافٌ بين العنصريين، فنشأ عن هذا الخلاف حزب وطني مصري ترأسه أحمد عرابي، وحدثت بعض مظاهر الشغب وأخذت الثورة تمتد وتشتد حتى جرت مذبحة الإسكندريَّة، وذهب فيها كثير من الأجانب، وهذا ما كانت إنكلترا تتمناه حتى تدخل من هذا الباب وهو حماية أرواح الأجانب، وجاء الأسطول الإنكليزي فضرب الإسكندريَّة ودمر قلاعها ودخلت قوَّاتها إلى القاهرة، وكلُّ هذا بزعمهم على نيَّة تأييد الخديوي ثمَّ الرجوع من حيث أتوا، ولبث الجيش الإنكليزي مدة من الزمن في مصر وطال مكوثهم فيها والباب العالي يعترض عليهم ويطلب جلاءهم بحسب وعدهم، حتَّى إنهم أحصوا مواعيدهم الرسميَّة بالجلاء عن مصر فبلغت اثنين وستين وعداً نكثوا بها كلها،

١- فرديناند دى لسبس الدبلوماسي الفرنسي صاحب مشروع حفر قناة السويس.

٢- تاريخ الدولة، د. حسون، ص (٢٣٦، ٢٣٧، ٢٣٨).

وبقيت الحال على غير استواءٍ بين إنكلترة والدولة العثمانية مدة سلطنة عبد الحميد، وذلك كلُّه بسبب مصر، وكان السلطان قد أرسل مختار باشا مندوباً من قبله لملاحظة مصالح الدولة، وكان المصريون يجلون مختار باشا كثير الإجلال، ولكن الإنكليز لم يجعلوا له سبيلاً لأي تدخل في مصر[1].

الاحتلال الفرنسي لتونس:

بعد انقضاء ثلاث سنوات على مؤتمر برلين ادعت فرنسا وجود استفزازات على الحدود الجزائرية التونسيَّة، ودخلت تونس بحجة حمايتها بقوَّة قوامها ثلاثون ألف جندي، وحاصرت قصر (الباي) وأجبرته على توقيع معاهدة وافق بموجبها على الاحتلال بدعوى إعادة النظام والأمن، فأعلنت الدولة العثمانية احتجاجها، وتقرر إرسال الباخرة الحربية (إعصار توفيق) والحراقة (مظفر) وأيد السلطان إرسال القادة اللامعين مع فرقتين من قسم البحرية، وأمر باتخاذ الإجراءات اللازمة لحماية أمن طرابلس الغرب، وإلا فإنَّ البلاد التونسيَّة سوف تحتل برمتها، وعدَّت فرنسا ذلك عملاً عدائياً ووقف الأسطول الفرنسي في مواجهة الأسطول العثماني، وهدد بحرب واسعة، فما كان من الباب العالي إلا أن أبدى رغبته بالصلح؛ إذ إنَّ الحرب الروسية العثمانية لم يمض عليها بعد إلا ثلاث سنوات خرجت الدولة منها منهكة القوى، ولقد طلب الخليفة عبد الحميد إرسال ١٨ فيلقاً وعشرة آلاف بندقية على الرغم من معارضة فرنسا[2].

الأطماع الإيطالية في ليبيا:

كانت إيطاليا تحلم بضمِّ شمال إفريقية لها؛ لأنها تراه ميراثاً إيطاليَّاً، هكذا صرَّح رئيس وزرائها (ماتزيني) لكنَّ فرنسا احتلت تونس، وإنكلترا احتلَّت مصر،

١- تاريخ الدولة، الأمير شكيب، ص (٣٠٥- ٣٠٨).

٢- تاريخ الدولة، د. حسون، ص (٢٣٦).

ولم يبق أمام إيطاليا إلا ليبيا، وكانت السياسة الإيطالية لا تلفت النظر إلى تحركاتها، إلا أنَّ السلطان عبد الحميد كان متيقظاً لتلك الأطماع الإيطاليَّة، فقام باتخاذ التدابير اللازمة أمام الأطماع الإيطالية، ولما شعر أنَّه سيواجه اعتداءً إيطاليَّاً مسلحاً على ليبيا قام بإمداد القوَّات العثمانية في ليبيا بـ (١٥٠٠٠) جندي لتقويتها، وظلَّ يقظاً تجاه تحركاتهم، ويتابعها شخصيَّاً بواسطة سفير الدولة في روما، مما جعل الإيطاليين يضطرون إلى تأجيل احتلال ليبيا، حتى تمَّ لهم ذلك في عهد جمعية الاتحاد والترقي[١].

الجامعة الإسلامية:

بعد أن التقط السلطان عبد الحميد أنفاسه، وجرَّد المتأثرين بالفكر الأوربيِّ من سلطاتهم، تولَّى هو قيادة البلاد قيادةً حازمةً، فاهتمَّ بفكرة الجامعة الإسلاميَّة، وقد تكلم في مذكَّراته عن ضرورة العمل على تدعيم أواصر الأخوَّة الإسلاميَّة بين كل مسلمي العالم في الصين، والهند، وأواسط إفريقيا، وحتَّى إيران[٢].

> وفي هذا يقول: «إن عدم وجودِ تفاهمٍ مع إيران أمر جدير بالتأسف عليه، وإذا أردنا أن نفوت الفرصة على الإنجليز، وعلى الروس فإننا نرى فائدة تقاربٍ إسلامي في هذا الأمر»[*].

وإلى هذا أشار المؤرخ البريطاني آرنولد توتنبي[٣] في قوله:

١- الدولة، د. الصلابي، ص (٤٨٣، ٤٨٤).

٢- المصدر السابق، ص (٤٦١).

*- مذكرات السلطان عبد الحميد، ص (٢٣).

٣- أرنولد جوزف توينبي (١٨٨٩ / ١٩٧٥). وُلِدَ في لندن ودرَسَ اليونانية واللاتينية في أكسفورد، وتقلَّب في عدّة مناصب، منها: أستاذ الدراسات اليونانيّة والبيزنطيّة في جامعة لندن، ومدير دائرة الدراسات في وزارة الخارجية البريطانية. من أهم أعماله «دراسة للتاريخ» وهو من أشهر المؤرخين في القرن العشرين.

«إنَّ السلطان عبد الحميد، كان يهدف من سياسته الإسلامية، تجمع مسلمي العالم تحت راية واحدة، وهذا لا يعني إلا هجمة مضادة، يقوم بها المسلمون ضدَّ هجمة العالم الغربي التي استهدفت عالم المسلمين»[1].

ويعترف السلطان عبد الحميد بأنه لم يكن لديه الطاقة، ولا القوة لمحاربة الدول الأوربية حيث يقول: «ولكن الدول الكبرى كانت ترتعد من سلاح الخلافة، وخوفهم من الخلافة جعلهم يتفقون على إنهاء الدولة العثمانية، وأن الدولة العثمانية تضم أجناساً متعددةً من أتراكٍ، وعربٍ، وألبان، وبلغار، ويونانيين، وزنوج، وعناصر أخرى، وبالرغم من هذا فوحدة الإسلام تجعلنا أفراد أسرة واحدة، ويجب تقوية روابطنا ببقية المسلمين في كل مكانٍ، يجب أن نقترب من بعضنا البعض، أكثر، وأكثر، فلا أمل في المستقبل إلا بهذه الوحدة، ووقتها لم يحن بعد لكنه سيأتي، سيأتي اليوم الذي يتحد فيه كل المؤمنين، وينهضون فيه نهضةً واحدةً، ويقومون قومةَ رجلٍ واحدٍ، وفيه يحطمون رقبة الكفار»[*].

استخدم السلطان عبد الحميد كلَّ الإمكانيات المتاحة في ذلك الوقت من اتِّخاذ الدُّعاة من مختلف جنسيَّات العالم الإسلامي، ومن العلماء، والدعاة الذين يمكن أن يذهبوا إلى أرجاء العالم الإسلامي المختلفة؛ للالتقاء بالشعوب الإسلاميَّة، وفهم ما عندهم، وإبلاغهم بآراء وتوجيهات السلطان الخليفة، والقيام بحملاتِ تبرعٍ لإحياء المساجد في العالم، والاهتمام بالمواصلات لربط أجزاء الدولة العثمانية، واستمالة زعماء القبائل العربية، واستمالة شيوخ الطرق الصوفيَّة، والاستفادة من الصحافة الإسلاميَّة في الدعاية للجامعة الإسلاميَّة، والعمل على تطوير الدولة، وتحديثها بما هو ضروريٌّ[2].

١- السلطان عبد الحميد، ص (١٦٨).

٢- السلطان عبد الحميد، ص (١٧٢).

* مذكرات السلطان عبد الحميد، ص (٢٤).

لقد لبَّت مجموعةٌ من العلماء، ودعاة الأمَّة الإسلاميَّة دعوة الجامعة الإسلاميَّة من أمثال جمال الدين الأفغاني، ومصطفى كمال من مصر، وأبي الهدى الصيَّادي من سورية، والحركة السنوسيَّة في ليبيا[1].

وخرجت الصحافة في ١٣٢٥/١٢/٢٦هـ، في استانبول بخبرٍ مفاده: أنّ عدداً من مسلمي الصين متحمسون، يحبون العلم، ويرغبون بالاستفادة من المعارف الإسلاميَّة، وأنَّ في بكين وحدها ثمانيةٌ وثلاثين مسجداً يؤدي المسلمون فيها الصلاة، ويدعون فيها لخليفة المسلمين السلطان عبد الحميد، وأنَّ خطبة الجمعة في مساجد بكين تقرأ باللغة العربيَّة، ثمَّ تترجم إلى الصينيَّة، وأنَّ الدُّعاء للخليفة عبد الحميد بصفته خليفة المسلمين لا يقتصر على بكين فقط، بل يمتدُّ إلى كل مساجد الصين، وجوامعها[2].

تأسست في بكين- عاصمة الصين- جامعةٌ أطلق عليها المسلمون الصينيون اسم (دار العلوم الحميديَّة) نسبةً إلى السلطان، أو بتعبير السفير الفرنسي في استانبول اسم: (الجامعة الحميديَّة في بكين) وذلك في تقريرٍ له إلى وزارة خارجيَّته في باريس[3].

وفي مراسم الافتتاح، ألقيت الخطبة باللغة العربيَّة، ودعا الخطيب للسلطان الخليفة عبد الحميد، وبكى أغلب المسلمين بكاءً حاراً بدافع فرحتهم، ورُفِعَ العلم العثمانيِّ على باب الجامعة، وقد أثر تأثيراً بالغاً في هؤلاء النَّاس طَّيبي القلب[4].

١- الدولة العثمانية، د. الصلابي، ص (٤٦٤).

٢- جريدة ترجمان حقيقت، رسالة من الصين.

٣- الدولة، د. الصلابي، ص (٤٧٦).

٤- السلطان عبد الحميد، ص (٢٠٥).

محاولةُ تعريب الدولة:

كان الخليفة عبد الحميد يرى- منذ تولَّى الحكم- ضرورة اتِّخاذ اللغة العربيَّة لغةً رسميَّةً للدولة العثمانيَّة، وفي هذا يقول: «اللغة العربية لغةٌ جميلةٌ ليتنا اتَّخذناها لغةً رسميَّةً للدولة من قبل، لقد اقترحت على (خير الدين باشا) التونسي عندما كان صدراً أعظم أن تكون اللغة العربيَّة هي اللغة الرسميَّة، لكن سعيد باشا كبير أمناء القصر اعترض على اقتراحي هذا وقال: إذا عرَّبنا الدولة فلن يبقى للعنصر التركي شيءٌ بعد ذلك- ولكن تلك مسألةٌ أخرى- فاتخاذنا للغة العربيَّة لغةً رسميَّةً من شأنه- على الأقل- أن يزيد ارتباطنا بالعرب»[1].

مراقبته للمدارس، ونظرته للمرأة:

عندما تولَّى الخليفة عبد الحميد الخلافة رأى أنَّ المدارس، ونظام التَّعليم أصبح متأثراً بالفكر الغربيِّ، وأنَّ التيار القومي هو التيَّار السائد في هذه المدارس، فتدخَّل في شؤونها ووجَّهها إلى الدراسات الإسلاميَّة؛ فاستبعد مادَّة التاريخ العام، لكونها وسيلةً تؤثر سلباً على الأجيال لما تحمله من نزعات قوميَّة، وأدخل مواد الفقه والتفسير بأسلوبٍ أكثر مرونةٍ وذلك لإحيائها في نفوس الشباب من جديد[2].

اهتم السلطان عبد الحميد بالمرأة، وجعل للفتيات داراً للمعلمات، ومنع اختلاطهن بالرجال، وفي هذا يذكر السلطان في معرض الدفاع عن نفسه أمام اتهام جمعية الاتحاد والترقي له بأنه عدو العقل، والعلم بأنه: «لو كنت عدواً للعقل، والعلم؛ فهل كنت أفتح الجامعة؟ ولو كنت هكذا هل كنت أنشئ لفتياتنا اللواتي لا يختلطن بالرجال داراً للمعلمات؟!».

١- المصدر السابق نفسه، ص (١٩٩).

٢- المصدر السابق نفسه، ص (٢٠١).

مدرسة العشائر:

أنشأ السلطان عبد الحميد في استانبول باعتبارها مركز الخلافة مدرسة العشائر؛ من أجل تعليم وإعداد أولاد العشائر العربيَّة من الولايات المختلفة، وكانت مدَّة الدراسة فيها خمس سنوات، وهي داخليَّة تتكفل الدولة بكل مصاريف طلابها، ولكل طالب إجازة صلة رحم، وهي مرةً كلَّ سنتين، وسفر الطالب فيها على نفقة الدولة، وكان المتخرجون في هذه المدرسة، يدخلون المدارس العسكريَّة العالية. وبرنامج المدرسة كتالي:

- السنة الأولى: القرآن الكريم، العلوم الدينيَّة، الإملاء، الحساب، والقراءة التركيَّة، تدريبٌ عسكريٌّ.
- السنة الثانية: التجويد، تحسين الخط، بالإضافة إلى مواد السنة الأولى.
- السنة الثالثة: الجغرافية، الفرنسيَّة، بالإضافة إلى مواد السنة الثانية.
- السنة الرابعة: الصَّرف العربي، اللغة الفارسيَّة، الكتابة، النَّحو التركي، حسن الخط الفرنساوي، بالإضافة إلى مواد السنة الثالثة.
- السنة الخامسة: النحو العربي، التاريخ العثماني، القواعد العثمانية، المكالمة التركيَّة، الهندسة، المعلومات المتنوعة، حفظ الصحة، أصول إمساك الدفاتر، الرسم، بالإضافة إلى مواد السنة الرابعة[1].

خط سكة حديد الحجاز:

عمل السلطان على كسب الشُّعوب الإسلاميَّة عن طريق الاهتمام بكلِّ مؤسساتها الدينيَّة والعلميَّة، والتَّبرع لها بالأموال ورصد المبالغ الطَّائلة لإصلاح الحرمين، وترميم المساجد، وأخذ السلطان يستميل إليه مسلمي العرب بكلِّ

١- تاريخ التربية التركية، عثمان أركين، ص (٦١٤، ٦١٥).

الوسائل، فكوَّن له من العرب حرساً خاصاً، وأبدى السلطان عبد الحميد اهتماماً بالغاً بإنشاء الخطوط الحديديَّة في مختلف أنحاء الدولة مستهدفاً من ورائها تحقيق الأغراض الآتية[1]:

١- ربط أجزاء الدولة المتباعدة، ممَّا ساعد على نجاح فكرة الوحدة العثمانيَّة، والجامعة الإسلاميَّة.

٢- إجبار ولايات الدولة على الاندماج فيها، والخضوع للقوانين العسكريَّة؛ التي تنصُّ على وجوب الاشتراك في الدفاع عن الخلافة بتقديم المال والرجال.

٣- تسهيل مهمة الدفاع عن الدولة في أيَّة جبهةٍ من الجبهات التي تتعرض للعدوان، لأنَّ مدَّ الخطوط الحديديَّة ساعد على سرعة توزيع القوَّات العسكريَّة وإيصالها إلى الجبهات[2].

كانت سكَّة حديد الحجاز[3] من أهم الخطوط الحديديَّة التي أنشئت في عهده، ففي سنة ١٩٠٠م، بدأ بتشييد خطٍّ حديديٍّ من دمشق إلى المدينة للاستعاضة عن طريق القوافل الذي كان يستغرق من المسافرين نحو أربعين يوماً، وطريق البحر الذي كان يستغرق اثني عشر يوماً، ولم يكن غرض السكَّة دينيَّاً فقط، بل كان له أهدافٌ سياسيةٌ وعسكريَّة، فمن النَّاحية السياسيَّة خلق المشروع في أنحاء العالم الإسلامي حماسةً دينيَّةً كبيرة؛ إذ نشر السلطان على المسلمين في

١- الدولة، د. الصلابي، ص (٤٧٧).

٢- صحوة الرجل المريض، د. موفق بني المرجة، ص (١١٣).

٣- سكة حديد الحجاز هي سكة حديد ضيقة (بعرض ١٠٥٠ ملم)، تصل ما بين مدينة دمشق والمدينة المنورة في منطقة الحجاز، بوشر العمل بها عام ١٩٠٠ وافتتحت عام ١٩٠٨، واستمر تشغيلها حتى ١٩١٦ في الحرب العالمية الأولى؛ إذ تعرضت للتخريب بسبب الثورة العربية الكبرى وسقوط الدولة العثمانية بعد الحرب.

جميع أنحاء العالم بياناً يناشدهم فيه بالإسهام لإنشاء هذا الخط، وقد افتتح السلطان قائمة التبرعات بمبلغ خمسين ألفاً ذهباً عثمانياً من ماله الخاص [1].

وشارك القصر الحاكم في مصر في حملة التبرعات، وكان مسلمو الهند أكثر مسلمي العالم حماساً، وتبرعاً للمشروع، كما تبرَّع شاه إيران بمبلغ خمسين ألف ليرة عثمانيَّة[2].

وبلغ عدد العمال غير المهنة عام ١٩٠٧م (٧٥٠٠) عامل، وبلغ إجمالي تكاليف المشروع (٤,٢٨٣,٠٠٠) ليرة عثمانيَّة، وتمَّ إنشاء المشروع في زمنٍ وتكاليف أقلَّ مما لو تعمله الشركات الأجنبيَّة في الأراضي العثمانيَّة[3].

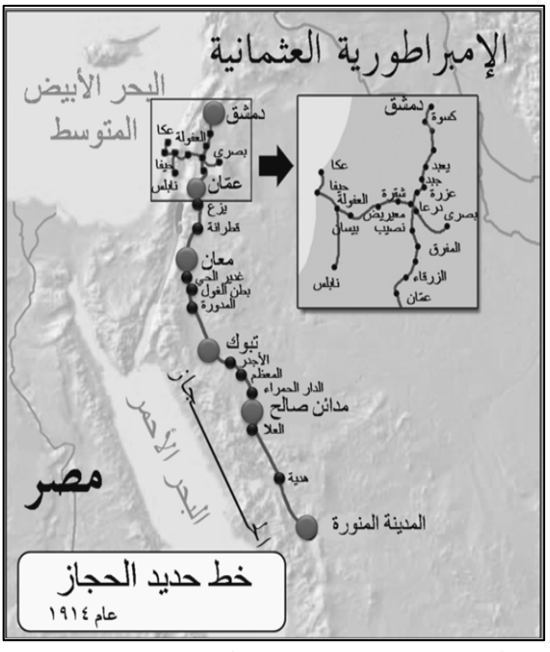

وفي سنة ١٩٠٨م، وصل الخطُّ الحديدي إلى المدينة المنوَّرة، وكان مفروضاً أنَّ يتمَّ مده بعد ذلك إلى مكَّة، لكن حدث أن توقف العمل فيه لأنَّ الشريف حسين بن علي خشي على سلطانه في الحجاز، فبقيت نهاية الخط عند المدينة، حتَّى قامت الحرب العالمية الأولى عمل الإنكليز بالتحالف مع القوَّات العربية التي انضمَّت إليهم بقيادة الشريف حسين على تخريب سكة حديد الحجاز، ولا تزال السكَّةُ معطلةً حتى

١- المصدر السابق نفسه.

٢- الدولة، د. الصلابي، ص (٤٧٨).

٣- السلطان عبد الحميد، ص (٢٢٤).

اليوم، والمأمول أن تبذل جهودٌ لإصلاحها حتى تعود إلى العمل في تيسير سفر حجاج بيت الله الحرام[1].

الشريف حسين والسلطان:

عمل السلطان على إبطال مخطَّطات الإنكليز، ومؤامراتهم الخبيثة، ولم يتوان عن حجز من يشكُّ في ولائهم للدولة، ويلزمهم بالبقاء تحت رقابة الدولة في استانبول تحت مسمَّيات المناصب والمرتبات، حتى تأمن الدولة شر فتنتهم، كما فعل مع الشريف حسين عندما عيَّنه عضواً في مجلس شورى الدولة، ليمنعه من العودة إلى مكَّة، ويقول السلطان عنه في مذكراته: «إنَّ الشريف حسين لا يحبنا، إنَّه الآن هادئ، لكنَّ الله وحده يعلم ماذا يمكن أن يفعله الشريف غداً».

لذلك تأخر قيام الثورة العربية الكبرى بقيادته إلى ما بعد خلع الاتحاديين للسلطان عبد الحميد؛ ذلك لأنَّ حزب الاتحاد والترقي الماسوني، أعاد الشريف إلى مكة، فاستطاع أن يتحالف مع الإنكليز، ويحدث تلك الفجوة بين مسلمي العرب والترك[2].

السلطان عبد الحميد واليهود:

إنَّ أمر اليهود، وعداءهم للإسلام تعود جذوره إلى ظهور الإسلام منذ أن انتصر الإسلام، وأجلاهم الرسول ﷺ عن المدينة المنوَّرة لخيانتهم المتكررة، وعداواتهم الدَّائمة، ومن ثمَّ عن سائر الجزيرة العربيَّة في عهد عمر رضي الله عنه، وقد تظاهر بعضهم بالإسلام، وبثَّ السموم في جسم الأمَّة الإسلاميَّة عبر تاريخها الطويل[3].

١- الدولة، د. الصلابي، ص (٤٧٩).

٢- المصدر السابق نفسه، ص (٤٨١).

٣- المصدر السابق نفسه، ص (٤٨٦).

أمَّا يهود الدولة العثمانيَّة، فقد تمتعوا بكلِّ الامتيازات والحصانات بموجب قوانين رعايا الدولة، ووجدوا السلم، والأمان، وحرية الوجود في الدولة العثمانية[1].

يهود الدونمة:

هناك مفاهيم عديدة لكلمة الدُّونمة، ولكنَّ المفهوم السياسي لها فإنَّه يعني اليهود المسلمين الذين لهم كيانهم الخاص، وقد أطلق المعنى الخاص بالدُّونمة منذ القرن السابع عشر على اليهود الذين يعيشون في البلاد الإسلامية، ولاسيّما في ولاية سلانيك[2].

إنَّ مؤسس فرقة الدُّونمة هو شبتاي زيفي الذي ادعى: أنَّه المسيح المنتظر في القرن السابع عشر، حيث انتشرت في تلك الأيام شائعةٌ تقول: إنَّ المسيح سيظهر في عام ١٦٤٨م كي يقود اليهود في صورة المسيح، وأنَّه سوف يحكم العالم من فلسطين، ويجعل القدس عاصمة الدولة اليهودية المزعومة[3].

وقد استطاعوا أن يؤثروا في جمعية التحاد والترقي، وكان السلطان عبد الحميد عارفاً بحقيقة الدونمة، ويؤكد هذه الحقيقة الجنرال جواد رفعت أتلخان، حيث يقول في هذا الصدد: «إنَّ الشخص الوحيد في تاريخ الترك جميعه، الذي عرف حقيقة الصهيونيَّة والشبتائيَّة وأضرارهما على الإسلام، وخطرهما تماماً، وكافح ضدَّها مدَّةً طويلةً لتحديد شرورهم هو السلطان العثماني العظيم عبد الحميد الثاني الذي كافح هذه المنظمات الخطيرة لمدَّة ثلاثٍ وثلاثين سنة بذكاءٍ، وعزمٍ كالأبطال»[4].

١- اليهود والدولة العثمانية، د. أحمد النعيمي، ص (٣٨، ٣٩)

٢- يهود الدونمة، د. أحمد النعيمي، ص (٨).

٣- المصدر السابق، ص (١٦).

٤- السلطان عبد الحميد، والخلافة الإسلامية، للجندي، ص (١٠٧).

ونتيجةً لموقف عبد الحميد من الدونمة، قام يهود الدونمة بالتعاون مع المحافل الماسونيَّة للإطاحة به، وقد استخدم هؤلاء شعاراتٍ معينةً كالحرية، والديمقراطية، وإزاحة المستبد عبد الحميد، وعلى هذا الأساس قاموا بنشر الشقاق، والتمرد في الدولة بين صفوف الجيش، وكانت الغاية من هذا تحقيق المشروع الاستيطاني الصهيوني باستيطان فلسطين، وكان يهود الدونمة يشكلون اللبنة الأولى لتنفيذ المخططات اليهودية[1].

أمَّا ثودر هرتزل وهو زعيم الحركة اليهودية الصهيونيَّة فقد سعى بكل ما يملك من قوَّةٍ وأموال أن يغير من رأي عبد الحميد تجاه اليهود، ولكنَّ النتيجة تبقى واحدة: وهي الرفض.

ثودر هرتزل

١- الحركة الإسلامية الحديثة في تركيا، محمد مصطفى، ص (٦٨، ٦٩).

وفي هذا الصدد قام السُّلطان عبد الحميد الثَّاني بإرسال رسالةٍ إلى هرتزل بواسطة صديقه نيولنسكي جاء فيها:

من أقوال ومواقف.

السلطان عبد الحميد الثاني

(إنصحوا الدكتور هرتسل بألا يتخذ خطوات جدية في هذا الموضوع، فإني لا أستطيع أن أتخلى عن شبر واحد من أرض فلسطين ... فهي ليست ملك يميني ... بل ملك الأمة الإسلامية .. لقد جاهد شعبي في سبيل هذه الأرض ورواها بدمه .. فليحتفظ اليهود بملايينهم ... وإذا مزقت دولة الخلافة يوماً فإنهم يستطيعون آنذاك أن يأخذوا فلسطين بلا ثمن ..

أما وأنا حي فإن عمل المبضع في بدني لأهون عليّ من أن أرى فلسطين قد بترت من دولة الخلافة وهذا أمر لا يكون. إني لا أستطيع الموافقة على تشريح أجسادنا ونحن على قيد الحياة).

السلطان عبد الحميد الثاني
أستانبول (١٩٠١م)

وفي الحقيقة كان عبد الحميد يرى: أنَّه من الضروري عدم توطين اليهود في فلسطين، كي يحتفظ العنصر العربي بتفوقه الطبيعي، وعن ذلك يقول: «...ولكنْ لدينا عددٌ كافٍ من اليهود، فإذا كنَّا نريد أن يبقى العنصر العربي متفوقاً؛ علينا أن نصرف النظر عن فكرة توطين اليهود في فلسطين، وإلا فإنَّ اليهود إذا استوطنوا أرضاً تملَّكوا جميع قدراتها خلال وقتٍ قصير، ولذا نكون قد حكمنا على إخواننا في الدين بالموت المحتَّم»[1].

١- المصدر السابق نفسه، ص (١٤٦).

ومن ثم يمكننا القول بأن السلطان العظيم عبد الحميد الثاني العثماني المسلم، لم يدع لليهود أي مجال لاستيطان أرض فلسطين العربية العثمانية، ويعزز قولنا هذا قـول هرتزل عندما قال: «إني أفقد الأمل في تحقيق أماني اليهود في فلسطين، وإن اليهود لن يستطيعوا دخول الأرض الموعودة، ما دام السلطان عبد الحميد قائماً في الحكم، مستمراً فيه».

فتحركت الصهيونية العالمية، لتدعم أعداء السلطان عبد الحميد، وهم المتمردون الأرمن، والقوميُّون في البلقان، وحركة حزب الاتحاد والترقي، والوقوف مع كل حركة من شأنها أن تنفصل عن الدولة العثمانية[1].

جمعيةُ الاتحاد والترقي وآخرون يتآمرون على خلع السلطان:

التحق ثلاثةٌ من الإعلاميين الثوريين العثمانيين هم نامق كمال، محمد ضياء، علي سعاوي بالأمير المصري مصطفى فاضل في باريس، وكوَّنوا منظمةً أسموها ((جمعية العثمانيِّين الجدد))، ومع مرور أيام قويت شوكتها وأصبحت تمارس الضغوط على السياسة العثمانية[2].

فشعر السلطان عبد الحميد أنَّ جماعة العثمانيين الجدد بقيادة مدحت باشا تمارس ضغطاً متواصلاً لقبول أفكارها، حيث أجبرته على دخول الحرب العثمانية الروسيَّة، فعمل على تشتيت أعضائها؛ فبدأ بنفي كبيرها وهو الصدر الأعظم مدحت باشا[3].

---

*- المصدر السابق نفسه، ص (١٥٨).

١- السلطان عبد الحميد الثاني، محمد حرب، ص (٢٣٤).

٢- الدولة، د. الصلابي، ص (٥٠١، ٥٠٢).

٣- المصدر السابق نفسه.

جمعية الاتحاد والترقي:
هي حركة معارضه هدفت إلى الإطاحة بالإمبراطورية العثمانية تأسست عام ١٨٩٤ وصلت إلى سدة الحكم في الدولة العثمانية بعد انقلابها على السلطان عبد الحميد الثاني في ٢٧ ابريل ١٩٠٩، ومن ثم ورطت الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى مما أدى إلى سقوطها وتقاسم الدول الأجنبية لأراضيها.
ومن المعلوم أن قادة الاتحاد والترقي كلهم على الإطلاق من الماسونيين وليس منهم واحد مسلم الأصل أو تركي العرق. فأنور بولندي و(جاويد) من يهود دونمة و(كراسو) يهودي إسباني.
وجمعية الاتحاد والترقي هي التي فرضت عملية التتريك على جميع الولايات العربية وغيرها حيث فرضت اللغة التركية في الدواوين والمدارس والمناهج.

وفي عام ١٨٨٩م تأسست منظمة طلابيَّة في المدرسة العسكرية الطبية في استانبول، حيث كان بعض الأساتذة هناك يحرضون الطلاب على نحو مستمر لمعارضة الحكم، ونشر أفكار العثمانيين الجُدد بينهم، وكان مؤسس هذه المنظمة إبراهيم تيمو الروماني الذي تأثر بالمحافل الماسونيَّة الإيطالية، وأطلق على اسم المنظمة: الاتحاد العثماني، واختاروا يوم الاحتفال بذكرى الثورة الفرنسية تاريخاً لإنشاء منظمتهم، وجعلوا من أهم أهدافهم مقاومة السلطان عبد الحميد وخلعه من الحكم[1].

ونتيجةً للمرسلات السريَّة بين أعضاء جمعية الاتحاد العثماني السريَّة في الداخل، وفي الخارج تمَّ الاتفاق على وحدة العمل العسكري، والمدني ضدَّ السلطان، وعلى اعتماد اسم جمعية الاتحاد والترقي للجناحين المعارضين.

١- السلطان عبد الحميد، ص (٢٧٩).

أوغست كونت

حيث كان اسم الجمعية في الأوساط العسكرية هو (الاتحاد العثماني)، وكان أحمد رضا بك- ممثل الجناح المدني- متأثراً بأفكار الفيلسوف أوغست كونت[1]، وكان دستور هذا الفيلسوف هو (الانتظام والترقي)، فأخذ أحمد كلمة الترقي استلهاماً منه، واحتفظ العسكريون بمسمى (الاتحاد)، ليتفق الجميع على اسم (الاتحاد والترقي)[2].

وتغلغلت خلايا (الاتحاد والترقي) في وحدات الجيش، والموظفين، واتحد العمل العسكري مع المدني، للعمل الفعلي ضدَّ السلطان، واستطاعت الجمعية بالفعل إجبار السلطان في ٢٤ يوليو ١٩٠٨م، على إعلان الدستور الذي كان قد أمر سابقاً عام ١٨٧٧م بوقف العمل به[3].

لقد قامت جمعية الاتحاد والترقي على إثارة المشاعر القوميَّة عند الأتراك، ونادت بمفاهيم جديدة مثل: الوطن، والدستور، والحرية، وكانت هذه المفاهيم غريبة على العثمانيين، وقد ضمَّت الجمعية في صفوفها مجموعة من الشباب المثقفين الأتراك، بالإضافة إلى يهود الدونمة، وكانت الغاية هي الإطاحة بحكم الخليفة عبد الحميد[4].

١- أوغست كونت (١٧٩٨-١٨٥٧): عالم اجتماع وفيلسوف اجتماعي فرنسي، أعطى لعلم الاجتماع الاسم الذي يعرف به الآن، ويعد هو الأب الشرعي والمؤسس للفلسفة الوضعية.

٢- المصدر السابق نفسه، ص (٢٨٠، ٢٨١).

٣- المصدر السابق نفسه.

٤- اليهود والدولة العثمانية، ص (١٦٨).

وبالمقابل كان السلطان شديد الحذر من جمعية الاتحاد والترقي المدعومة باليهود والمحافل الماسونيَّة، والدول الغربية، واستطاع جهاز مخابرات السلطان أن يتعرَّف كل حركةٍ يقوم بها أعضاء هذه الجمعية، إلا أنَّ هذه الحركة كانت قويَّة، وقد جاءت مراقبة عبد الحميد لها في وقت متأخر، الأمر الذي أرغمه على قبول مطالبهم بإعلان دستور ١٨٧٧م، أمَّا سبب إبقائه في سدَّة الحكم قليلاً بعد ذلك فكان للأسباب التالية:

١- لم تكن في حوزة الاتحاد والترقي القوَّة الكافية لعزله في عام ١٩٠٨م.

٢- اتخاذ عبد الحميد سياسة اللين والمرونة معهم، وذلك بتنفيذ رغباتهم.

٣- ولاء العثمانيين لشخص السلطان عبد الحميد[١].

إنَّ الصهيونية العالمية لم تقتصر على الانقلاب الدستوري هذا، بل تعاونت مع جمعية الاتحاد والترقي لتحقيق مكاسب أخرى في فلسطين، وعليه كان لابدَّ من التخلص من السلطان نهائيَّاً، ولذلك دبرت أحداث ٣١ آذار ١٩٠٩م في استانبول، والتي ترتب على أثرها اضطراب كبير، انتهى بعزل السلطان عبد الحميد الثَّاني عن الحكم[٢].

وصف أحداث ٣١ آذار[٣]

طلبت قيادة القوَّات الخاصة من بعض المشايخ إلقاء دروسِ الوعظ في ثكنتيِّ (طاش قشلة) و(بيك أوغلي) فدخل هؤلاء إلى صفوف الجند بلا ممانعةٍ أو إعاقة.

ودعيت الفرقة المؤلفة من القوَّات الخاصة إلى اجتماع، وفي تلك الأثناء جاء شخصٌ انتحل صفة جنرال ومعه بعض الضبَّاط، ثمَّ خطب وبعد إنهاء خطابه قال

١- اليهود والدولة العثمانية، ص (١٦٨).

٢- الدولة، د. الصلابي، ص (٥٠٨).

٣- الدولة العثمانية، د. علي حسون، ص (٢٥٥-٢٥٨).

إنَّه سيتلو قراراً سلطانيًّاً جاء فيها إنَّ السلطان وبإفتاء من شيخ الإسلام يطلب من الجنود لبس القبَّعة، ثمَّ نزع ذلك الرجل طربوشه عن رأسه ولبس قبَّعته وعزفت الموسيقى ثمَّ جرى عرض عسكريٍّ، ثمَّ غادروا بعد ذلك.

وبالطبع لم يدر في خَلَد أحد أنَّ ذلك الباشا كان مزيَّفاً هو ومن معه، ولا يخفى ماذا كان يعني لبس قبّعةً بالنسبة لشخص مسلم في ذلك الزمن.

وكان لا بدَّ لإتمام هذه المكيدة أن يدخل ضباط مزيَّفون بين الجند بغية إثارة المشاعر، وبالفعل بدأ الهياج في الثكنات، وقام المزيَّفون بإلقاء الخطب الحماسيَّة، وادعوا غيرتهم على الدين، وتظاهروا باستنكار تلك الفعلة الشنيعة.

ثمَّ اتَّجه الرَّكب الثائر نحو مجلس النواب، والتقوا في طريقهم بجنودٍ ثائرين مثلهم قد خرجوا من ثكنة المدفعيَّة، قادهم إلى عملهم الشيطان نفسه الذي أخرج رفاقهم، والتقى بهم في الطريق أيضاً طلاب المعاهد الشريعة الساخطون، واتجه ذلك الحشد غير المتجانس وسط طلقات الرصاص إلى فناء آيا صوفيا، وحاصرت الجماهير مجلس المبعوثين وهي تطالب بتطبيق الشريعة، ولا يدري أحد سوى هؤلاء الأعداء المبثوثين، وأسيادهم أيَّة شريعة يريدون، ثمَّ بدأ إطلاق النَّار، وسرعان ما سقط القتلى، ويا للأسف، كانت الجماهير من الجند والطلبة سائرين وثائرين بسبب الخدعة التي رسمها المتآمرون لهم، ثمَّ حرضوهم على السير بها.

وكانت في الوقت نفسه فتنةٌ أخرى تُمَثِّلُ أدوارُها في سلاح البحريَّة، بأسلوب مغاير؛ إذ استطاع الجند أن يعتقلوا قائد البارجة (إعصار توفيق) المقدَّم علي قبولي، وساقوه نحو قصر يلدز مدَّعين محاولته ضرب القصر بمدفعيَّته وهم يصرخون ويهتفون بحياة السلطان، حتَّى ظهر عبد الحميد من النافذة وسألهم عن مطالبهم فقالوا: إنَّهم يطالبون بتنفيذ الشريعة، وإنَّ ذلك القائد كان يودُّ قتل

السلطان، وتدمير القصر فحاول السلطان أن يهدئ من أمرهم، ولكن سرعان ما هجم أحد الرجال المدسوسين وطعن قائد البحريَّة بحربة بندقيَّته فأرداه قتيلاً، وعاد كل شيءٍ إلى مكانه.

ويبدو واضحاً من تلك الأحداث المتتالية السريعة أنَّ يداً خفيَّة كانت تحاول إثارة مشاعر الناس لإحداث اضطرابات من شأنها خلعُ السلطان بأيَّة طريقة ممكنة، فالبرغم من كلِّ ما فعله أعداء الإسلام من دعم جمعية الاتحاد والترقي، وإعلان الدستور، فهم لم يستطيعوا عزل السلطان عبد الحميد الذي استطاع بإيمانه بالله، وبذكائه وحسن سياسته أن يكسب حبَّ الناس له وتعلقهم به.

وبعد مرور أسبوعين على تلك الحادثة، خرج السلطان لتأدية صلاة الجمعة، ثمَّ تكلم بحضور بعض الضبَّاط، قائلاً: «إنَّ ما قرئ في ثكنة (طاش قشلة) لم يصدر عني مطلقاً، لقد دبره بعض الأعداء، وتبين من التحقيق أنَّه تدبيرٌ سياسي مقصود».

ثمَّ حدث أن تقدَّم الجيش العثماني المرابط في سلانيك، والذي يضم عدداً من ضباط الاتحاديين إضافةً إلى عناصر مشبوهة أخرى بقيادة محمود شوكت ودارت بعض المناوشات بين القوَّات العسكريَّة، إلى أن استسلم جنود العاصمة.

ثمَّ ظهر أنور باشا[1]- القائد البارز في حزب الاتحاد والترقي- وبيده مسدس وبصحبته بعض الضباط، فقتلوا كثيراً من الجنود، ثمَّ بدؤوا بالإغارة على قصر يلدز فقبضوا على مرافق السلطان الأول وهددوه ليرشدهم على مكان الخزينة، ولكنه رفض فقتلوه، ثمَّ اتجهوا نحو المرافق الثاني فأرشدهم إليها، فنهبوا

١- أنور باشا: ولد عام ١٢٩٩هـ في استانبول، وهو جنرال عثماني، وأحد الرجال الثلاثة الذين حكموا الدولة العثمانية من عام ١٣٣٢-١٣٣٧هـ. لعب دوراً أساسياً في دخول الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولى إلى جانب الألمان. وهو ابن أحمد بك من حاشية السلطان عبد الحميد وزوج ابنة أخي السلطان.

المال على مرأى ومسمع السلطان، ولكنَّ الأموال لم ترض أطماعهم فقام أنور- وهو صهر العائلة المالكة- بارتكاب مذبحة داخل القصر، وأهان كبار الضباط الأكفياء، ثمَّ اجتمع أعضاء مجلس الاتحاد والترقي وقرروا خلع السلطان عبد الحميد[1]، وحصلوا من المفتي محمد ضياء الدين أفندي فتوى خلع السلطان، وتكوَّنت بتكليف من جمعية الاتحاد والترقي لجنةٌ لإبلاغ خليفة المسلمين، وسلطان الدولة العثمانية عبد الحميد الثاني بقرار خلعه، وكانت اللجنة مكوَّنة من الأسماء الآتية:

١- إيمانويل قراصو: وهو يهوديٌّ إسباني، كان من أوائل المشتركين في حركة تركيا الفتاة، وهو محامٍ، أدى دوراً مهماً في احتلال إيطاليا لليبيا نظير مبلغ من المال، وكان أثناء وجوده في الدولة الأستاذ الأعظم لمحفل مقدونيا الماسوني.

٢- آرام: وهو أرمني عضوٌ في مجلس الأعيان العثماني.

٣- أسعد طوبطاني: وهو ألباني، نائب في مجلس المبعوثان.

٤- عارف حكمت: وهو فريق بحري عضو في مجلس الأعيان [2].

بعد إبعاد عبد الحميد الثاني عن السلطة، عبرت الصحف اليهوديَّة في سلانيك عن فرحتها في الخلاص من (مضطَّهد إسرائيل) كما وصفته هذه الصحف، وأخذت تزف البشائر لتخلصها من الرجل الذي رفض طلب هرتزل مرَّتين، والذي وضع جواز السفر الأحمر الذي يقابل عندنا قانون الأجانب [3].

مصير السلطان، ووفاته:

لقد نفى الاتحاديون السلطان عبد الحميد إلى سلانيك وأنزلوه هناك في قصرٍ، وعند اقتراب الأعداء من احتلال هذه المدينة أثناء الحرب العالمية، نقلوه إلى

١- تاريخ الدولة العثمانية، د. حسون، الصفحات من ٢٥٥ إلى ٢٦٠.

٢- العثمانيون في التاريخ والحضارة.

٣- السلطان عبد الحميد، ص (٢٣٠).

قصر (بيليربك) في استانبول، ليمضي هناك بقية حياته، وكانت وفاة هذا القائد العظيم، وصاحب آخر لقب خليفةٍ فعليٍّ للمسلمين في ١٠ شباط من عام ١٩١٨م، ودفن جثمانه الطاهر إلى جانب جثمان عمه عبد العزيز الذي اغتالته الماسونيَّة بسبب إصلاحاته السريعة، وجده محمود الثاني الذي خلَّص الدولة من خطر الإنكشارية الذين فسدت أخلاقهم، وكان قد بلغ من العمر أربعةً وسبعين عاماً، وبكى أثناء تشيع جنازته حتى ألدُّ أعدائه، كان له تسعة أولاد، وسبع بنات، عليه رحمة الله ورضوانه [١].

اكتشاف الحقيقة المرة والندم عليها:

إنَّ بعض أقطاب حركة الاتحاد والترقي اكتشفوا فيما بعد أنَّهم قد وقعوا تحت تأثير الماسونيَّة والصهيونيَّة، فهذا أنور باشا الذي أدى دوراً مهمَّاً في انقلاب عام ١٩٠٨م، يقول في حديثٍ له مع جمال باشا[٢] أحد أركان الاتحاد والترقي: «أتعرف يا جمال ما هو ذنبنا؟» وبعد تحسرٍ عميقٍ قال: «نحن لم نعرف السلطان عبد الحميد، فأصبحنا آلةً بيد الصهيونيَّة واستثمرتنا الماسونيَّة العالمية نحن بذلنا جهودنا للصهيونيَّة، فهذا ذنبنا الحقيقي»[٣].

وفي هذا المعنى، يقول أيُّوب صبري قائد الاتحاديين العسكريين: «لقد وقعنا في شرك اليهود، عندما نفَّذنا رغباتهم عن طريق الماسونيِّين لقاء صفيحتين من

١- تاريخ الدولة العثمانية، د. حسون، ص (٢٦٧).

٢- أحمد جمال باشا (١٨٧٣- ١٩٢٢). هو قائد جيش عثماني وقد عين في سورية عام ١٩١٥، وفرض سلطانه على بلاد الشام وأصبح الحاكم المطلق فيها وهو من زعماء جمعية الإتحاد والترقي وقاتل البلغار في مقدونيا واشترك في الانقلاب على السلطان عبد الحميد. وشغل منصب وزير الأشغال العامة بعام ١٩١٣ ثم قائداً للبحرية العثمانية عام ١٩١٤.

٣- اليهود والدولة العثمانية، ص (٢٢٨).

الليرات الذهبيَّة في الوقت الذي عرض فيه اليهود ثلاثين مليون ليرةً ذهبيَّةً على السلطان عبد الحميد لتنفيذ مطالبهم، إلا أنَّه لم يقبل»[1].

قال الفيلسوف التركيِّ رضا توفيق وهو من كبار الاتحاديين والمعارضين لحكم السلطان عبد الحميد في قصيدة له كتبها بعد وفاة عبد الحميد:

«عندما يذكر التَّاريخ اسمك، يكون الحقُّ في جانبك، ومعك يا أيَّها السلطان العظيم. كنَّا نحن الذين افترينا- دون حياء- على أعظم سياسي العصر لم نكن مجانين فحسب، بل كنَّا قد عدمنا الأخلاق»[2].

١- المصدر السابق نفسه، ص (٢٢٩).

٢- تاريخ الدولة العثمانية، د. علي حسون، ص (٢٦١).

أحمد جمال باشا يتوسط قادة عشائر جنوب العراق

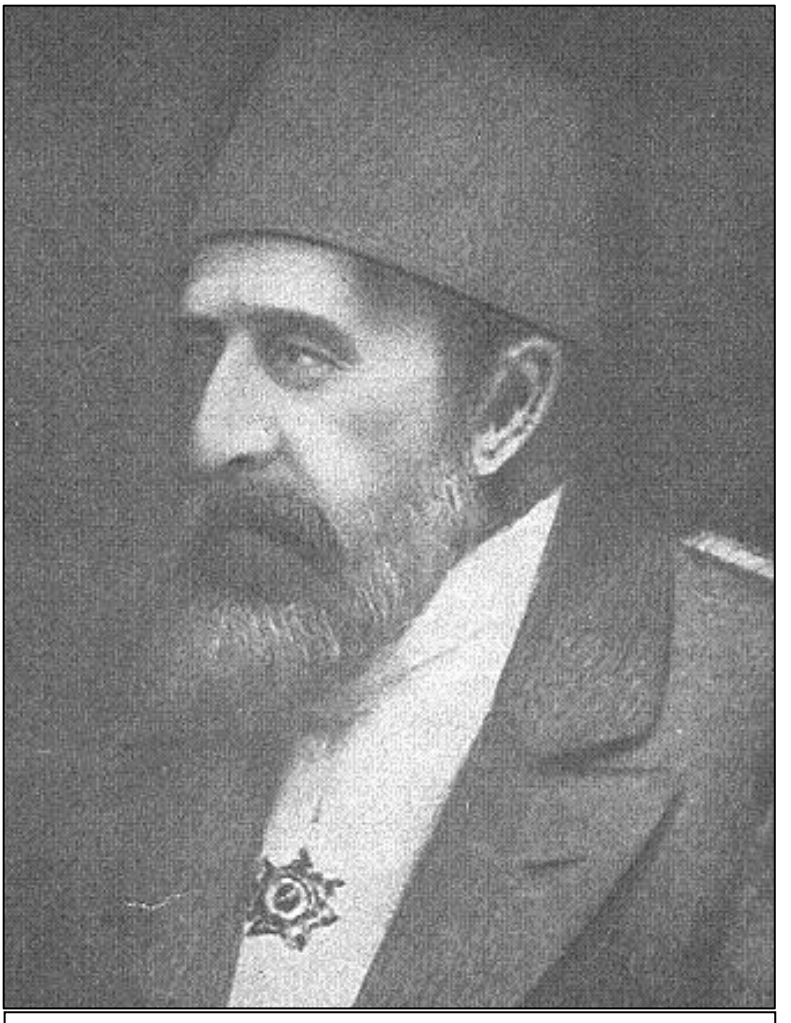

السلطان عبد الحميد الثاني

الشريف حسين بن علي

انتهاء الخلافة الإسلاميَّة العثمانيَّة
بعد أن عُزل السَّلطان
عبد الحميد الثَّاني
فما الأسباب الَّتي أدَّت لذلك

نقلاً من كتابي الدكتور علي حسون، والدكتور علي الصلابي:

ضعف الإيمان بشرع الله تعالى:

إنَّ من أهم الأسباب التي دفعت بالدولة العثمانيَّة إلى ما وصلت إليه من التَّخلف والضَّعف، والهزائم المتلاحقة؛ هو ابتعادها عن شرع الله عزَّ وجل، وهذا الأمر واضحٌ على مر العصور، سواءً أيام الخلافة الأمويَّة، أو العباسيَّة، أو يومنا هذا، والقرآن الكريم فيه الحجَّة والدليل على ذلك، يقول تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

فقد ابتعدت الأمَّة عن شرع الله تعالى في أواخر أيام الدولة العثمانية، فترى النَّاس منغمسين بمتاع الحياة الدنيا، غافلين عن جوهر هذا الدين الحنيف، قلوبهم في غفلة عن الإيمان بالله، مما جعل الخوف يهاجم قلوبهم، ويحسبون كلَّ صيحة عليهم، ظناً بأنهم ضعفاء متخلفون أمام العلم الأوروبي، فترى الجندي في ساحات الوغى قلبه ضعيفٌ أمام الأعداء من أثر المعاصي في قلبه، وكأنَّه في ضنك من العيش: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤].

وأمَّا الذنب الأكبر، والخطأ الأفظع، فهو عدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإنَّ هذه الفريضة من أهم أركان هذا الدين فبها يتجلَّى فهوم التكافل،

والغيرة على الإسلام، يقول تعالى: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩].

بطء عجلة التطور:

لم يبد علماء الدولة العثمانية اهتماماً كبيراً في إدخال الأفكار الجديدة، وطغت المشكلات السياسية في دور الانحطاط، وبقيت مدارسهم على ما كانت عليه في القرن ١٣ الميلادي، ٧ الهجري و لم تتقدم قط.

وهذا التخلف أصاب العثمانيين الترك كما أصاب غيرهم من عرب وعجم، و لم يكن عن نيَّةٍ مقصودة وإنما كان بسبب الظروف الدَّاخلية والخارجيَّة، وهنا يبدو الفرق واضحاً بين الدولة العثمانيَّة وبين الاستعمار؛ ذلك أنَّ الاستعمار يحرص على تقدم بلاده على حين يبذل جهده في بقاء سكان المناطق المستعمرة على حالة من الجهل والتخلف، أمَّا العثمانيون فكانوا وغيرهم من هذه الناحية على حدٍّ سواء.

ومما يبين مقدار الخمول عندهم أنَّه لم تدخل صناعة السفن إلى الدولة العثمانية إلا في القرن العاشر الهجري، و لم تدخل المطابع في العاصمة إلا في زمن السلطان مصطفى الثاني، وحينما انهزمت الدولة عام ١١٨٨هـ الموافق ١٧٧٤م انتبهت قليلاً إلى هذا الأمر، فبدأ سليم الثالث بالإصلاح، وأنشأ المدارس الجديدة، وكان هو نفسه يعلِّم في مدرسة الهندسة، وقد مكَّن ذلك التخلف الغرب من التفوق في الجانب المادي، فاخترع الأسلحة الحديثة ووسائل الصناعة.

وبدأ الزحف الصليبي الجديد يحمل لافتات جديدة دون تغيير في المضمون، وأبقى المسلمون في حال من التخلف والضعف، فكانت أوربا كلها تقاتل من الغرب والجيش الروسي يقاتل من الشمال، على الرغم من الخلاف بين الطرفين.

الهجمة الصليبية والاعتداء الخارجي:

والكلام هنا يطول، ويكفي التَّلميح إلى الحملة الفرنسية على مصر، وعلى الجزائر، والتَّوسع الرُّوسي في الشمال الشرقي، والحملة الإنكليزيَّة على مصر وعدن، واستيلاء الطليان فيما بعد على طرابلس الغرب، أمَّا المناوشات، والغزوات العسكريَّة، والحركات الانفصاليَّة التي أشعلتها الصليبية العالمية في ولايات الدولة فهي أمرٌ لم يخلُ عهد سلطانٍ منها.

توسع رقعة الدولة:

شغلت الدولة العثمانية في أوج قوَّتها وتوسعها مساحةً من الأراضي تزيد عن عشرة ملايين ميل مربَّع ولولا الرابطة الدينية، وتعلق الناس باسم السلطان الخليفة لانفرط العقد العثماني، وزالت هيبة الدولة عن كثير من الأقاليم البعيدة عن العاصمة.

الجمعيات والأحزاب السياسية:

بعد أن أُرغم السلطان عبد الحميد على إعلان دستور عام ١٨٧٧م، وذلك في عام ١٩٠٨م، ظهرت للعموم أحزاب وجمعيَّات منها الجديد، ومنها من كان يعمل بالخفاء، ومن بين هؤلاء حزب الاتحاد والترقي الذي شمل بعض اليهود في عضويَّته، وورَّط البلاد في حروبٍ ونزاعات، وأرغم قادته الدولة العثمانية في الانخراط في الحرب العالمية الأولى بعد أن استطاعوا بعد جهد جهيد أن يقضوا على حكم الرجل الذكي والسياسيِّ المحنَّك عبد الحميد الثاني. وكانت الماسونيَّة بالطبع من وراء تلك الجمعيات السريَّة تحيك لها الدسائس، وتدعم قيادتها، وما أحداث ٣١ آذار عنهم ببعيد.

انحصار مفهوم العبادة:

إنَّ النهضة في الدولة العثمانيَّة في عصورها الزاهية كانت في كل المجالات دون تميزٍ أو تفاضل، فقد كانت حركة الدولة، والشعب، والعلماء حركةً واحدةً وتعبيراً صادقاً لمفهوم العبادة الشامل، لا بالفرائض وحسب، بل بالمعاملة وحُسن السيرة مع الآخرين. ولكن سرعان ما فسدت أحوال العباد مع مرور السنوات فأصبحت العبادة عادة لا قلباً ينبض لتأديتها، مما أدَّى إلى سلبيَّات من أهمها:

عدم فهم جوهر النصوص الشرعية، والتمسك بقشورها الظاهرية فقط؛ يقول الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

فمن تمَّعن في قراءة القرآن الكريم يجد أنَّ الله سبحانه وتعالى ينبهنا إلى قوله والله يحب المطَّهرين، التَّوَّابين، والصَّادقين، ولكنَّه لم يذكر قط أنَّ الله يحب المصلِّين وفي هذا دليلٌ خطيرٌ مفاده؛ أنَّ الصلاة بفرائضها الخمس، وسننها، ونوافلها ما هي إلا وسيلةٌ للوصول إلى غاية الإنسان المسلم، فمن دون تأدية الصلاة بمعناها التَّام لن يصدق اللسان وينتهي عن الكذب، ولن يتوب القلب ويكفَّ عن الشرك، والمعصية العلنيَّة.

الحضارة العثمانيَّة

الصحافة والتعليم[1]:

كانت صحيفة ((تقويم وقائع)) اليوميَّة أول إصدار ظهر عام ١٢٤٧هـ، ثمَّ تلتها ((جريدة حوادث)) التي صدرت عام ١٢٥٦هـ، وكانتا تنقلان بعض الأخبار المترجمة عن الصحف الأجنبيَّة، وبعد أقلَّ من ثلاثين سنة ظهرت صحفٌ أخرى ميولها أدبيَّة مثل ((ترجمان أحوال)) وبعدها بسنتين جريدة ((تصوير أفكار)). وأمَّا في مجال التَّعليم فالمتصفح لما مرَّ معنا من أخبار السلاطين يعلم مدى الجهد الذي بذل لمتابعة التطور العلمي في الدولة.

التاريخ:

كانت المحاولات الأولى لتدوين التَّاريخ الوطني تدويناً منظماً قد بدأت في عصر باكر، ونجد في عهد السلطان با يزيد الأول الكتاب التاريخي الذي وضعه المتَّصوف أحمد عاشق باشا، والمتميز بأسلوبه الشعبي الخالص، ومنذ القرن العاشر الهجري ظهر الاهتمام بكتابة التاريخ، فعُيِّن المؤرخون الرسميون أمثال سعد الدين المتوفَّى عام ١٠٠٧هـ، ولا ننسى أنَّ السلاطين الأوائل كانوا يأخذون معهم المؤرخين إلى ساحات المعارك ليكتبوا مجريات الحوادث.

الجغرافية:

تعدُّ الجغرافيا إحدى العلوم التي أجاد فيها العثمانيون نسبيَّاً، ونذكر من أهمِّ العلماء بهذا المجال اسم (الرَّيِّس بيري) المعاصر للسلطانين سليم الأول وسليمان القانوني، حيث كان الرَّيِّس قائداً للبحرية العامة، وعالماً جغرافيَّاً (ولد عام ١٤٦٥م وتوفي عام ١٥٥٤م)، وله في هذا المجال خريطتان مهمتان، الأولى

١- تاريخ الدولة، د. علي حسون، ص (٣٦٩- ٤١٥).

لإسبانيا، وغرب إفريقية، والمحيط الأطلسي، والسواحل الشرقية من الأمريكتين... وهذه قدَّمها للسلطان سليم الأول عندما كان في مصر عام ١٥١٧م، وموجودة الآن في متحف (طوبقبو) في إستانبول (٦٠×٨٥ سم) وعليها توقيع الرَّيِّس، والثانية لسواحل الأطلسي من غرينلاند إلى فلوريدا (٦٨×٦٩ سم) وموجدة في ذات المتحف. وهذه الخريطة التي رسمها الرَّيِّس بيري لأمريكا هي أقدم خريطة لها.

ففي ٢٦ أغسطس عام ١٩٥٦م، عُقِدَت في جامعة جورج تاون بالولايات المتحدة الأمريكية ندوةٌ إذاعيةٌ عن خرائط الرَّيِّس، واتفق كلُّ الجغرافيين المشتركين فيها بأنَّ خرائطه لأمريكا: (اكتشافٌ خارقٌ للعادة)[1].

وفي هذا المجال أيضاً يلمَعُ لدينا اسم العالم (حاجي خليفة) وله عدَّة كتب رفع بعضها إلى السلطان محمد الرابع، ومنها كتابٌ في تاريخ البحرية العثمانية سماه ((تحفة الكبار في أسرار البحار)).

الطب والعلوم:

كان الطلبة يزاولون تدريباتهم في مستشفيات عدَّة، وأثناء حكم السلطان محمد الفاتح، والسلطانين با يزيد الثاني وسليمان القانوني تعادلت أسس التعليم الطبي في المدارس العثمانية كيفيَّاً مع نظيرتها في المراكز الأوروبيَّة الطبيَّة الشهيرة آنذاك.

ونذكر من الأطباء في عهد الفاتح الحكيم قطب الدين العجمي، والطبيب شكر الله الشرواني، والحكيم شاه محمد القزويني الذي تقرب إلى السلطان سليم الأول، وله تصانيف غير طبية مثل (حياة الحيوان).

وعندما دخلت الدولة عصر الركود والانحطاط كثر المرضى، وانتشر التخلف بين العامة، وازداد النقد الموجَّه نحو العاصمة التي كانت مشغولةً بدرء الفتن، والدفاع عن الأرض، ولكنَّ بعض الانتقادات رأت ثمارها فأنشئت المدرسة

١- الدولة العثمانية، د. الصلابي، ص (٥٥٩).

الطبيَّة (طبانه) ومدرسة الجراحين (جراحانا) في عهد السلطان محمود الثاني، وبعد جولة قام بها أحد المؤرخين في استانبول إبان حكم محمود الثاني إلى هذه المعاهد قال: (كان المستشفى العسكري الكبير أكثر المنشآت التي زرتها رقيًّا ورفاهيَّةً من أي مكانٍ آخر، وفي آي بلدٍ آخر).

كما برع الملَّى محمود القاضي بمدينة بروسا المعروف بقاضي زاده المعاصر للسلطان أورخان بالعلوم الرياضية وشرح أشكال التأسيس في الهندسة.

فن الرسم العثماني:

لقد أبدع العثمانيون في فن رسم اللوحات، وكان من أشهر فناني الرسم ((حسن باشا))، ووجد في نهاية القرن السادس عشر مدرسةُ فن الرسم الزيتي في بغداد، وكان لبغداد ماضٍ طويل في الرسم الزيتي، وتطورت هذه المدرسة تحت رعاية حكام الولايات الذين يعيَّنون من قبل الدولة العثمانية.

الآثار العمرانية:

١- جامع آيا صوفيا:

وهي الكنيسة السابقة التي حوَّلها السلطان محمد الثاني الفاتح إلى مسجد يمثل الجامع الرئيس في العاصمة، ولقد عدِّلت لتلائم الشريعة الإسلاميَّة، ومن جملة التحسينات التي أُدخلت عليها؛ ففي عهد السلطان مراد الرابع كتبت بعض الكلمات ذات الأحرف الكبيرة التي تحمل اسم الجلالة، واسم الرسول ﷺ، وخلفاءه الراشدين، وذلك على لواحات مستديرة شيدت على جدران المسجد، وهي بخط الخطَّاط (زاده مصطفى شلبي)، وعلى سبيل المثال حرف الألف طوله عشرة أذرع، والأحرف كلها بخطٍ متشابكٍ وبديع.

٢- جامع السلطان محمد:

يتألف الجزء الداخلي من المسجد من قبَّة ضخمة تقع في الوسط تستند إلى أربعة أعمدةٍ وأربع قبابٍ أخرى أصغر حجماً، أمَّا الجزء الخارجي منه فيحمل

مئذنتين نحيلتين، ويحوي المسجد عدداً من المدارس والحمامات والمطابخ، وخان لنزول التجار الغرباء، وداراً للعجزة، ومستشفى، وعلى هذا التنظيم المؤسساتيِّ سارت كلُّ مدن العاصمة.

وإلى يمين الباب الرئيسي يجد المشاهد لوحةً رخاميَّةً كتب عليه بأحرفٍ من ذهب الحديث النبويِّ الشريف ((لتفتحن القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش)).

٣- القصور:

أهمها سراي طوب قبو التي تمتاز بامتدادها الواسع ومبانيها وحدائقها وساحلتها، وفي كلِّ غرفة أو بهو تقريباً يرى الزائر آيات القرآن الكريم كتبت على الجُدُر بماء الذهب. إضافةً إلى هذا السراي هناك سراي دولما بهجي على البوسفور، وتمتاز ببهوها الكبير، وكانت مسكناً للسلطان محمد رشاد، وسراي يلدز التي سكنها السلطان العظيم عبد الحميد الثاني.

التكافل الاجتماعي، ونشر الإسلام:

ربما كان من أعظم ما أكرم الله به الحضارة العثمانية هو التكافل الاجتماعيِّ الذي بدا واضحاً في أوائل عصورها ثمَّ بدأ يتناقص على مرِّ العصور، ليعود متَّقداً في عهد عبد الحميد الثاني، ومن جملة هذا التَّكافل؛ كانت هناك أوقافٌ بصرف مرتَّبات للعائلات الفقيرة، وكان الأكل المجَّاني له أوقاف عامة أخرى، تسمَّى ((عمارات وقفي)) أي: وقف المطاعم الخيريَّة، وكانت العمارات تقدم طعاماً مجانيَّاً لعددٍ يبلغ ٢٠,٠٠٠شخص يوميَّاً، وكان مثل هذا في كل الولايات وكان المطعم الخيري بجامع السُليمانيَّة تبلغ ميزانيَّته عام ١٥٨٦م ما يعادل (١٠) ملايين دولار أمريكي إلا قليلاً[١].

١- العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص (٤٤٢).

وأمَّا أهم ما يذكر في هذا المجال فلقد أسلم في نحو ثلاثين سنة ومنذ سنة (١٠٢٦هـ، ١٠٥٧هـ) نحو ٣٠٠ ألف ألباني، ولم يكن عليهم أيُّ أثر للضغط أو الإكراه وروي ذلك من قبل المؤرخين الغربيين أنفسهم، أمَّا الصرب فقد آثروا سيادة العثمانيين على سيادة المجر، وأصبح أهالي البوسنة الذين دخلوا في الدين الإسلامي يبدون غيرة وحماسة متدفقة له، وسرعان ما تبوَّأ أشرافهم مكانةً سامية في عاصمة الدولة العثمانية، وتسلَّم بعضهم مناصب رفيعةً فيها.

الجهاد في سبيل الله:

لقد ضرب الجنود العثمانيون أعظم الأمثلة في الشجاعة والبسالة في تلك المعارك الطَّاحنة التي خاضوها، ونذكر لمحةً بسيطةً عن ما فعله هؤلاء الجنود:

لقد عملوا بجهد على إنهاء ما كان يعرف بالإمبراطوريَّة البيزنطيَّة وعاصمتها القسطنطينية، وذلك بقيادة السلطان العثماني محمد الفاتح، وضربوا أروع الأمثلة في مهاجمة الإمبراطوريَّة الرومانيَّة المقدَّسة، وذلك في عصر السلطانين سليم الأول، وسليمان القانوني، وكان يتزعم الإمبراطوريَّة شارل الخامس[١]، وفي عصر الجمود والانكماش استطاع الجيش العثمانيُّ المسلم أن يحاصر قيصر روسيا بطرس الأكبر (١٦٧٢- ١٧٢٥م)، وكان هذا القتال المشرِّف في عهد السلطان أحمد الثالث (١٧٠٣- ١٧٣٠م)[٢]. لم يكن التَّوسعُ الأكبر لرقعة الدولة العثمانية إلا عن طريق الجهاد والإيمان بالله، فأصبحت أقاليم الدولة منتشرةً في ثلاث قاراتٍ عالميَّة[٣].

١- الدولة العثمانية، د. الصلابي، ص (٢٣٤).

٢- الدولة العثمانية، د.جمال عبد الهادي، ص (٧٦).

٣- الدولة، د. الصلابي، ص (٢٢٠).

ولكن ماذا حدث بعد السلطان عبد الحميد الثَّاني

ثلاثةُ سلاطين من آل عثمان:

بعد خلع السلطان عبد الحميد الثاني، سيطر دعاة القوميَّة على الحكم متمثلين بحزب الاتحاد والترقي، وتركيا الفتاة..، وكان بعض رجال هؤلاء الأحزاب مدمنين على الخمر، غافلين عن شرع الله، ومن ثمَّ يمكن اعتبار اسم الخلافة العثمانيَّة التي كانت تحمل فكرة الجامعة الإسلامية قد انتهت، ومنذ الآن سيقتصر اسم الخليفة العثماني على دولة تركيا القوميَّة وليس للخليفة إلا اللقب والدعاء أمَّا السياسة فليس له أيُّ صلة أو علاقة بها[1].

٣٥- السلطان محمد رشاد:

ولد في استانبول، وتولى السلطة العثمانية من عام ١٩٠٩م، حتَّى ١٩١٨م، وامتاز حكمه بسيطرة جمعية الاتحاد والترقي، وانهزام تركيا في الحرب العالمية الأولى.

وكان محمد رشاد رجلاً لطيفاً مهذباً تثقف بالثقافة الإسلامية وألمَّ بالأدب الفارسي، وانصبَّت

١- تاريخ الدولة العثمانية، د. علي حسون، ص (٢٧١).

اهتماماته على دراسة التاريخ الإسلامي والعثمانيِّ، ومع ذلك كانت تنقصه الإمكانيات للنهوض بأعباء الحكم، فقد كانت الصلاحيَّات كافة بيد حزب الاتحاد والترقي، وكان قد عارض دخول تركيا في الحرب العالمية، ولكن لم يستمع إليه أحد، وسقطت إثر ذلك معظم الولايات العثمانية بيد الحلفاء، وسقطت عاصمة الدولة الإسلامية تحت الاحتلال العسكري الأوربي[1].

٣٦- السلطان محمد السادس:

هو ابن السلطان عبد المجيد، تولى بعد محمد رشاد، وأصبح هذا السلطان الذكي المتبصر سلطاناً عام ١٣٣٦هـ، وحاول اقتفاء خطوات أخيه الأكبر عبد الحميد بالقبض شخصيَّاً على زمام الحكومة؛ إذ انهارت قوَّة جمعية الاتحاد والترقي وهرب قادتها بعد هزيمة الحرب العالمية، ولكن كان أن حدث في ١ تشرين الثاني عام ١٣٤٠هـ، أن ألغيت السلطنة، وبعد ستة عشر يوماً

نقل محمد السادس وابنه على ظهر سفينة حربية بريطانية إلى مالطة، وفشلت محاولته في إقامة خلافة إسلاميَّة في الحجاز برئاسته ، وتوفي في سان ريمو بإيطاليا في عام ١٣٤٤هـ الموافق ١٩٢٦م، وكان قد بقي هناك حتى عاجلته المنيَّة، ولم تسمح حكومة أتاتورك بنقل جثمانه إلى تركيا، فاحتُجِز الجثمان في إيطاليا، ثم طالب رئيس الجمهورية السورية آنذاك بملكية الجثمان فنقل إلى سورية ودفن فيها، وقبره اليوم في باحة جامع السلطان سليم ((التكيَّة)) في دمشق، وكان له ولدٌ واحد ((أرطغرل)) وثلاث بنات[2].

١- المصدر السابق نفسه.

٢- المصدر السابق نفسه، ص (٣١١، ٣١٢).

٣٧- السلطان عبد المجيد الثاني:

ولد في استانبول وهو آخر خليفةٍ عثماني، وقد اختير خليفةً من قبل المجلس الوطني الكبير بعد إلغاء السلطنة، وعلى الرغم من تجريد الخليفة من السلطات السياسية كافة فإن عبد المجيد الدبلوماسي والمثقف كان الرمز الحيَّ لارتباط تركيا بالماضي الإسلامي العثماني إذ التفَّت حوله القوى الإسلاميَّة، والمناوئة لمصطفى كمال الذي لجأ إلى بتر الصلة التركية بالماضي وأعلن الجمهورية العلمانيَّة، ونفي عبد المجيد في اليوم التالي لإعلانها، وكانت وفاته في ٢٣ آب من عام ١٣٦٠هـ /١٩٤٤ في بيته في باريس[١].

لماذا شاركت تركيا في الحرب العالمية الأولى، وماذا ترتب على ذلك:

بدأت الحرب العالمية الأولى (١٩١٤- ١٩١٨م)، وكان الاختلاف قد وقع في تركيا هل تدخل الحرب أما تلتزم الحياد، وفي كلا الأمرين خطر عليها، فهي إن التزمت الحياد، وضعت نفسها في خطر اتِّفاقِ الدول المعادية لها على اقتسامها بعد هجومٍ شاملٍ عليها، فهي بنظرهم الدولة الإسلاميَّة الوحيدة في العالم التي يصدر منها شرارة الإسلام.

وبالمقابل هي إن أرادت الدخول في الحرب فليس لها إلا أن تدخلها مع ألمانيا؛ ذلك لأنَّ الحلفاء فرنسا وإنكلترا وروسيا كانت لهم نوايا اقتسام الدولة العثمانية بعد الحرب، وكانت المعاهدات والاتفاقيَّات قدُوقِّعَت قبل الإعلان عن الحرب، ولذلك لم يقبل الحلفاء أيَّ طلب من الدولة التركيَّة للانضمام لهم.

١- المصدر السابق نفسه، ص (٣٢٥)، الدولة العثمانية، د. الصلابي، ص (٥٢٣).

وفي هذا السياق يقول الأمير شكيب أرسلان المعاصر لتلك المرحلة من التاريخ: عندما قُتِلَ وليُّ عهد النمسا، علمنا أنَّ الحرب العامة ستقع، فانعقد القلم العمومي تحت رئاسة طلعت باشا، وكنت أنا حاضراً، وصار كلٌّ منَّا يبدي رأيه، فقال سيد بك لطلعت باشا[1]: أرى الأَولى والأفضل أن نتخذ سياسة متوسطة، فأجابه طلعت: نحن بين الحياة والموت، ولا توسُّط بينهما، فإمَّا أن نمشي مع ألمانيا حتى يكون لنا ظهير قوي، وإمَّا أن نمشي مع الحلفاء حتَّى نتقي شرَّهم، ولكننا لا نرى الحلفاء يريدون أن يمشوا معنا، ولا أن يقبلوا عقد محالفة يتعهدون لنا فيها بصيانةِ السلطنة العثمانيَّة. وقد أشاع البعض أن دول الحلفاء عرضت على تركيا التحالف معها، وليس ذلك بصحيح، فإنهنَّ كنَّ ناوياتٍ تقسيم تركية، وكنَّ يعلمن أنهنَّ إن اتفقن معها امتنعُ تقسيم أقاليمها بعد الحرب[2].

ولقد اعترف (المسيو بوانكاره) في مجلس الشيوخ الفرنسي جواباً (للمسيو فكتور بيرار) بأنَّه منذ سنة (١٩١٢م) اتفقت فرنسا وإنكلترا على تقسيم سورية وفلسطين، وهذا قبل الحرب العالمية بسنتين[3].

ويؤكد صحة هذا الكلام أيضاً الدكتور علي حسون بقوله: لقد كانت آراء الحلفاء متباينةً بشأن دخول الأتراك الحرب؛ ففرنسا رغبت في عدم دخولها إلى جانبهم حتى تستطيع أن تحصل على أطماعها في البلاد العثمانية، وأمَّا روسيا فكانت ترفض دخول تركيا إليهم لأن ذلك من شأنه تهديد وصيَّة بطرس الأكبر

١- محمد طلعت باشا: ولد عام ١٨٧٤م في أدرنة بتركيا، وهو من زعماء تركيا الفتاة، ورجل الدولة البارز، تولى الصدارة العظمى عام ١٩١٧- ١٩١٨م، انحاز إلى جانب الألمان إبان الحرب العالمية الأولى بتأثير من أنور وزير الحربية.

٢- تاريخ الدولة العثمانية، الأمير شكيب أرسلان، ص (٤٠٧).

٣- المصدر السابق نفسه.

لهم في الاستيلاء على استانبول، وأمَّا العالم الإسلامي فلم يكن متحمساً لهذه الحرب لأنه لم يدرك أيَّ فائدة للاشتراك فيها، فاقتصر التأيد الإسلاميِّ على استجابة ضئيلة على المستوى الشعبي[1].

وحمي الوطيس ودخلت تركيا الحرب إلى جانب الألمان بأمر غير مباشر من السلطة وحاول الجنود المسلمون أن يضربوا أمثلة قويَّة في القتال والدفاع عن الدولة، ففوجئ الحلفاء بما رأوه من قوَّة الجيوش التركيَّة التي ما زال هناك شيءٌ من الإيمان في قلوبها، ففكر الحلفاء في اختراق نهر الدردنيل، والاستيلاء على العاصمة، وعبَّأ الحلفاء جيشاً جراراً، وأرسلوا أساطيلهم، وحاولوا عبور مضيق الدردنيل، فقاتلهم العثمانيون قتالاً شديداً، وأغرقوا جانباً من بوارجهم، فأتى الحلفاء بجيوش أخرى، وأنزلوها في البر، وحاولوا التقدم إلى الأمام، فصدَّهم المسلمون بشدَّة استبسلوا فيها إلى أقصى ما يتصوره العقل، واستمرت حرب الدردنيل هذه ثمانية أشهر، والحلفاء يكرون، والمسلمون يصدونهم، إلى أن قطع الحلفاء كلَّ أمل من الفوز، وركبوا بوارجهم خائبين، وقد فقدوا بين قتيل وجريح ثلاثمئة وخمسة وعشرين ألف جنديٍّ، حسبما وجد في وثائق الحرب الكبرى المطبوعة في باريس، وهذا العدد دون حسبان الخسائر البحريَّة التي تذكر تلك الوثائق بأنَّ المسلمين قد أغرقوا كثيراً من بوارجهم، التي لم ينجُ منها إلا عشرون جندياً لا غير[2].

ولما رأت إنكلترا بعينها أنَّ كلَّ المكايد والدسائس التي خطَّطت لها ودعمتها منذ أيام محمد علي باشا[3] في مصر إلى يوم خلع السلطان عبد الحميد

١- تاريخ الدولة، د. حسون، ص (٢٨٨).

٢- تاريخ الدولة، الأمير شكيب أرسلان، ص (٣١١).

٣- مؤسس العائلة الخديوية، ولد سنة ١٧٦٦م، وتوفي بالقاهرة سنة ١٨٤٩م، أرسلته الدولة العثمانية على رأس فرقة من الرُّوملي لإخراج الفرنسيين من مصر، فسعى للقضاء على المماليك، ليغدو صاحب السيادة في مصر، فتحقق له ذلك، واستقلت عائلته بحكم مصر.

الثاني، لم تُضعف من شوكة الإسلام في قلوب الجيش العثماني الذي همَّ ملبياً دعوة الجهاد، والدفاع عن الأرض، وحماية مركز الخلافة من كلِّ شر يهددها، عادت لتفكر في فصل العرب عن الترك، حتَّى تُشغل المسلمين بعضهم ببعض، ليسهل لها اقتحام الجبهة التي انسحبت منها وهي تجر أذيال الخيبة[1].

فتمكَّن الإنكليز من إيجاد الشخص المناسب الذي سيحقق لهم هدفهم في إضعاف الرابطة الإسلاميَّة بين الترك والعرب، وهو الشريف حسين بن علي الذي عمل السلطان عبد الحميد على إبقائه في استانبول خوفاً من خيانته كما ذكرنا، ولكن كان الاتحاديون قد سمحوا له بالعودة إلى مكَّة فاتفق مع الإنكليز على إقامة الثورة العربية الكبرى[2].

فدخل العرب الحرب إلى جانب الحلفاء فسادت فكرة القومية العربية، ووقع الصدام بين العرب والترك[3]، بعد أن جمعتهم الرابطة الإسلاميَّة والحميَّة الدينيَّة منذ دخول السلطان سليم الأول عام ١٥١٧م، بعد معركة مرج دابق مع المماليك، إلى أن قامت هذه الثورة التي لم يعلم القائمون بها ماذا سوف تحمل لهم من مصائب وحروب.

وبالعودة للحرب العالمية فقد قلبت الثورة العربية الموازين واحتلَّ الحلفاء واليونانيون أقاليم الدولة العثمانية ووقعت اسطنبول تحت سيطرة الإنجليز، وأصبح الخليفة كالأسير فيها[4].

١- المصدر السابق نفسه.

٢- انظر: تاريخ الدولة العثمانية، د.حسون، الأمير أرسلان /قسم الحرب العامة/.

٣- انظر: حاضر العالم الإسلامي، د. جميل المصيري (١/١١٠).

٤- الدولة، د. الصلابي، ص (٥١٧)

إنَّ خلع السلطان عبد الحميد، وقيام جمعية الاتحاد والترقي في الحكم، كانت خطوة أساسية نحو تحقيق المخطَّط الذي تمَّ أثناء الحرب، وبعد الحرب، والذي عمل الأعداء من خلاله على تحقيق الأهداف التي حدثت بعد عام ١٩١٤م، وهي كالآتي:

١- اتفاق الحلفاء على تقسيم العالم الإسلامي الخاضع للدولة العثمانية بينهم وذلك وفقاً لمعاهدة سايكس بيكو سنة ١٣٣٤هـ/ ١٩١٦م السريَّة، في الوقت الذي وعد فيه العرب بالاستقلال، وأهم ما تضمنته هذه المعاهدة:

- أن يكون جنوب العراق لبريطانيا، وساحل سورية الشمالي (لبنان) لفرنسا.
- تتكوَّن دولتان عربيَّتان شمال العراق، وأواسط بلاد الشام وجنوبيها يكون النفوذ في الأولى التي تضمُّ شمال العراق، وشرق الأردن لبريطانيا، والنفوذ في الثانية التي تشكل سورية، والجزيرة الفراتيَّة لفرنسا.
- تكون فلسطين دوليَّةً.
- تكون استانبول والمضائق (البوسفور والدردنيل) لروسيا [١].

٢- وعد بلفور الذي أصدرته بريطانيا للصهيونيَّة في ١٩١٧/١١/٢م، محرَّم ١٣٢٦هـ، بأن تكون فلسطين وطناً قومياً لليهود.

٣- تسليم تركيا لأبشع حركة تغريب، وتدمير للقيم الإسلاميَّة بنقلها من دولة مسلمة إلى دولة لا تؤمن بوجود الشريعة الإسلاميَّة[٢].

١- حاضر العالم الإسلامي، د. جميل المصري (١/١١١).

٢- الدولة العثمانية، د. الصلابي، ص (٥١٧).

مصطفى كمال أتاتورك ونهاية الدولة العثمانية

من أين ظهر هذا الرجل، وكيف اكتسب ثقة النَّاس بأن جعلوه أول رئيس لجمهوريتهم الجديدة، هل استطاع بقدراته فقط أن يقتلع الشريعة الإسلاميَّة بتلك السرعة بين شعوب عاشت حياة الإسلام لأكثر من سبعة قرون، أم أنَّ هناك من قدَّم له كلَّ ما يريد ليحقق من خلاله ما يريد؟!!.

كانت المؤامرةُ الخفيَّة للقضاء على الخلافة العثمانيَّة نهائيًّاً، تستدعي اصطناع بطل تتراجع أمامه جيوش الحلفاء الجرَّارة، وتُعلِّقُ المِلَّةُ الإسلاميَّة اليائسة فيه أملها الكبير وحلمها المنشود، وفي أوج عظمة تلك الدمية المصطنعة تنقضُّ على الرَّمق الباقي في جسم الأمَّة فتنهشه وتجهز عليه، وهذا أفضل من الـ((مئة مشروع لتقسيم تركيًّا)) وهدم الإسلام[1].

وتَّمت صناعة البطل بواسطةِ المخابرات الإنكليزيَّة بنجاح باهر، وظهر مصطفى كمال[2] بمظهر المنقذ لشرف الدولة من الحلفاء، واليونان الذين احتلّوا أزمير بتمكينٍ من بريطانيا سنة ١٣٣٨هـ، فقام مصطفى كمال باستثارة الجند، وتراجعت أمامه قوَّات الحلفاء بدون قتال، وأخلت المواقع كما كان متفقاً عليه

١- انظر: العلمانية، د.سفر الحوالي، ص (٥٦٩).

٢- مصطفى كمال أتاتورك: ولد في ١٩ مايو ١٨٨١ في مدينة سلانيك اليونانية التي كانت تابعة للدولة العثمانية وقتئذ وتوفي في ١٠ نوفمبر ١٩٣٨. أطلق عليه اسم الذئب الأغبر، واسم أتاتورك يعني أبو الأتراك وذلك للبصمة الواضحة التي تركها عسكرياً في الحرب العالمية. فارق الحياة عن عمر يناهز ٥٧ عاما بعد إصابته بمرض تشمع الكبد الذي نجم عن تناوله المفرط للكحول، واعتبرت جنازته من أكبر الجنازات التي شهدتها تركيا. ودفن في ضريح شيد له خِصّيصى يشرف على العاصمة التركية أنقرة.

معه، وبدأ مصطفى كمال يطفو على السطح تدريجيًّا بمظهر البطل وأحبَّه الناس والتفوا حوله[1].

ويكشف أرمسترونج رجل المخابرات الإنكليزي كيف وقع الاختيار على مصطفى كمال وحده من دون البقيَّة، لتنفيذ آخر خطوة في الخطة البريطانيَّة، فيقول: ((إنَّ طبيعته كانت تميل إلى أن يكون الآمر النَّاهي، فلم يُظهر أيَّ احترام لزعماء الاتحاديين، وتشاجر مع أنور وجمال باشا، ونيازي الألماني المتوحش، وطلعت الدب الكبير))[2].

وبعد أن تمكَّن أتاتورك من العباد والبلاد ورجال السياسة أعلن في عام ١٩٢٤م /١٣٤٤هـ انتهاء الخلافة الإسلاميَّة التي لم يكن لها آنذاك إلا اللقب، وأعلن قيام الجمهوريَّة التركيَّة العلمانيَّة، وأنَّه أول رئيس لها[3].

وفي عام ١٩٢٩م، بدأت الحكومة تجبر على استخدام الأحرف اللاتينية بدلاً من العربيَّة، وترجم القرآن الكريم إلى التركيَّة ففقد معناه، وأمر بأن يكون الأذان باللغة التركيَّة، وفي عام ١٩٣٥م غيَّرت الحكومة العطلة الرسمية من يوم الجمعة إلى يوم الأحد، وأمعنت حكومة مصطفى في حركات التغريب، فأصدرت قراراً بإلغاء لبس الطربوش، وأمرت بلبس القبَّعة تشبهاً بأوربا[4].

١- حاضر العالم الإسلامي، (١/١١٢).

٢- الدولة العثمانية، د. الصلابي، ص (٥٢٠).

٣- انظر: التاريخ العثماني في شعر أحمد شوقي، محمد أبو غدَّة، ص (١١٠).

٤- حاضر العالم الإسلامي، (١/١١٥، ١١٦). ولمزيد من التوسع الرجاء العودة لكتاب تاريخ الدولة العلية العثمانية، الأستاذ محمد فريد بك المحامي، ص (٧٤٧ حتى ٧٥٩).

كمال أتاتورك

إضاءات

أتاتورك و الظاهر بيبرس

إذا نظرنا إلى السياسة التي انتهجها السلطان الظاهر بيبرس والسياسة التي انتهجها مصطفى كمال أتاتورك، نجد الفرق بين تفكير الرجلين بعيداً جداً إذ بينما استند بيبرس (وهو من المماليك وقائد معركة عين جالوت) إلى الخلافة العباسية وأحياها في مصر، بعد أن تلاشت في بغداد فرفع بذلك من شأن نفسه ومن شأن المسلمين في كل مكان وكانت الخلافة له ولخلفائه من بعده قوةً ودعماً، نجد مصطفى كمال قد استند إلى الإنكليز لهدم الخلافة ليرفع نفسه ويهدم المسلمين.

لقد كـان باستطاعة مصطفى كـمال بعد أن انتصر على اليونان أن يتنكر للغربيين ويقلب لهم ظهر المجن فيخدم بذلك بلاده وأمته ولم يكن الغربيون يستطيعون آنذاك أن ينالوه بأذى لأن العالم كله كان معه، ولكنه لم يفعل ذلك لأن الخطة الغربية كانت تساير هواه، وهذا من سوء حظ المسلمين وحظ البلاد التركية في الدرجة الأولى، وما تشاؤون إلا أن يشاء الله.

ما الفائدة التي جناها المسلمون من كُسوفِ الشمس العثمانية:

وهكذا كُسِفت شمس الخلافة الإسلاميَّة العثمانيَّة، ولكن هذه المرَّة دون شروقِ شمس جديدة على يد مسلمين جُدد كما كان يحدث من قبل، لقد انتهى مفهومُ الخلافة الإسلاميَّة، وبالمقابل ماذا استفاد المسلمون من زوال حكم خلفاء بني عثمان.

هل كانت المجازر الروسيَّة البشعة في البوسنة والهرسك والشيشان لرَّعايا المسلمين أفضلَ من العيش تحت ظلِّ دولةٍ مسلمة كالدولة العثمانيَّة.

هل كان ثمن التَّحرر من رفرفة العلم العثماني فوق سماء الجزائر أن يصبح اسمها ولقبها بين الدول، بلد المليون شهيد على يدِ السفَّاحين الفرنسيين.

هل كان الثَّمن الذي دفعته جميع بلاد المغرب، والذي نتج عنه محو الثقافة العربيَّة من ألسنتهم، وذلك الذوبانُ الحضاريُّ بحضارة المستعمر الغاشم ، يستحقَّ مقولة الغرب الصليبيِّ: الآن وضع سكَّانُ بلاد المغرب أقدامهم على طريق التَّطور والحضارة، فعن أيِّ حضارة يتكلَّم هؤلاء.

هل كانت الثورة العربيَّة الكبرى، والدَّعوات اللحوحة للانفصال عن الدولة الأم تستحقُّ أن يدفع الشعب العربيُّ ضريبة الحدود بين أقاليمه، أن تصبح بلادُ الشام التي عُرِفَ أهلها بالمحبَّة والأُلفة، أربعةَ أقاليم منفصلة.

هل كان ثمن تذكرة الهروب من لواء الدولة العثمانية المتخلِّفة– كما يزعم الإيطاليون– بالنسبة لليبيا أن يحدث بها تلك المجازر الجماعيَّة والتشريد المرعب في الصحراء القاحلة، هل هذه ضريبة التطور التي أراد أن يُدخلها الغرب على الولايات العثمانيَّة.

هل تريد أن تسمع قصَّة الحضارة التي أرادت إيطاليا أن توجدها في ليبيا ولأجل ذلك أعلنت بسط حمايتها عليها؛ يقول المسيو (كوسيرا) مراسل جريدة

«اكسيلور» الفرنسيَّة: «لا يخطر ببال أحدٍ ما رأيناه بأعيننا من مشاهد القتل العام ومن أكوام الجثث التي يتصاعد منها الدخان تحت ملابسهم الصوفيَّة كالبخور يجري أمام مذابح النَّصر الباهر، لقد مررت بمائة جثة بجانب حائط قضي عليهم بأشكال متخلفة، وما إن فررت من هذا المنظر حتَّى تمثَّلت أمام عيني أسرة عربيَّة قتلت عن آخرها، وهي تستعد للطعام، ورأيت طفلة صغيرة أدخلت رأسها في صندوقٍ حتى لا ترى ما يحل بها وبأهلها. إنَّ الإيطاليين فقدوا عقولهم، وإنسانيَّتهم من كل وجه..» والأقوال الغربيَّة التي تَشهد على تلك المجازر كثيرة[1].

إنَّ الدولة العثمانيَّة الإسلاميَّة لم تضعُف إلا عندما تهرَّب شعبها من خدمتها، وتركها تواجه أعباء الأعداء وحدها، وانصرف أهل الأقاليم يتغذون على الأفكار الغربيَّة القوميَّة، بدلاً من مساعدة الدولة في التَّصدي لتلك الحملات الصليبيَّة الفكريَّة.

لقد كان عصر السلطان عبد الحميد الثاني، دليلاً واضحاً على أنَّ الدَّولة العثمانية، ما زالت قادرةً على التطور، ومواكبة الدنيا، بمنظار الإسلام، ولكنَّ الأعداء المتآمرين كانوا أقوى من جهد السلطان، فعملوا على عزله وإنهاء هذا المجد العثمانيِّ.

١- تاريخ الدولة، د. حسون، ص (٢٨٢،٢٨٣).

بنو عثمان

الأمراء العثمانيون
أرطغرل
١- عثمان
٢- أورخان
٣- مراد الأول
السلاطين العثمانيون
٤- بايزيد الأول
٥- محمد الأول
٦-مراد الثاني
٧- محمد الثاني
٨- بايزيد الثاني
الخلفاء العثمانيون
٩- سليم الأول
١٠- سليمان الأول
١١- سليم الثاني
١٢- مراد الثالث
١٣- محمد الثالث
١٤- أحمد الأول
١٥- مصطفى الأول
١٦- عثمان الثاني
١٧- مراد الرابع
١٨- إبراهيم

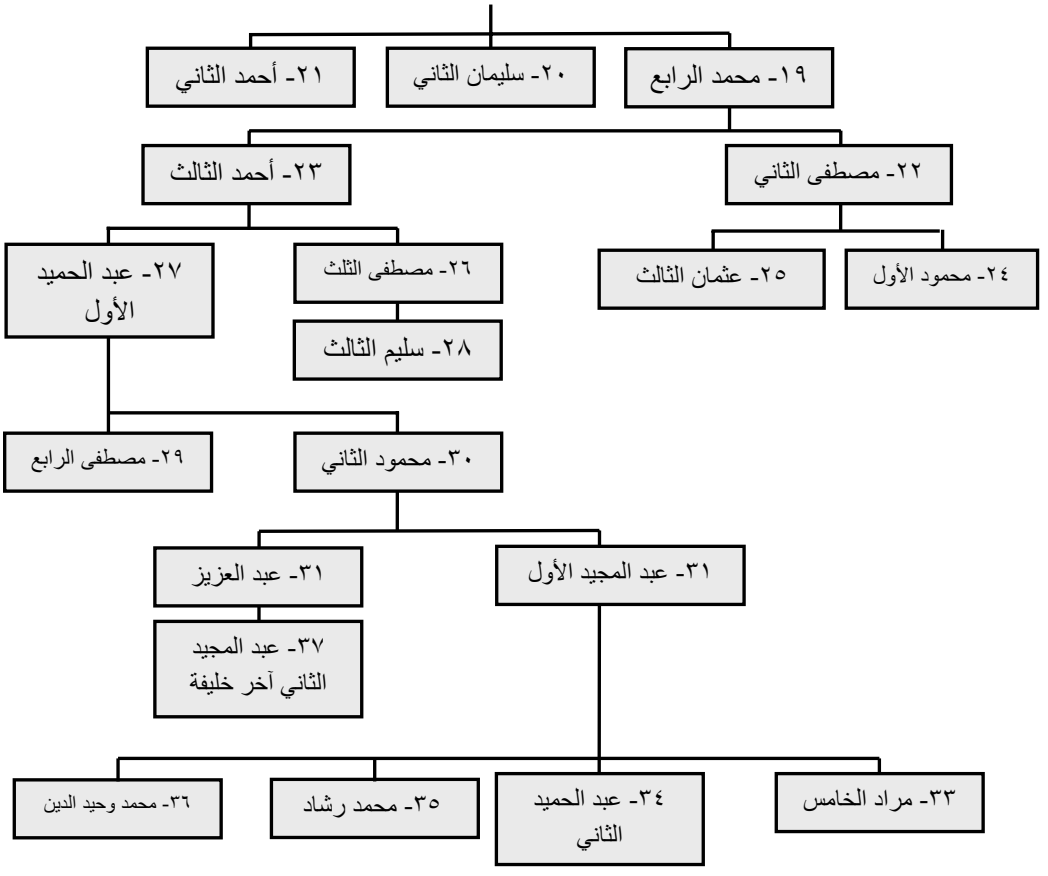
١٩- محمد الرابع
٢٠- سليمان الثاني
٢١- أحمد الثاني
٢٢- مصطفى الثاني
٢٣- أحمد الثالث
٢٤- محمود الأول
٢٥- عثمان الثالث
٢٦- مصطفى الثلث
٢٧- عبد الحميد الأول
٢٨- سليم الثالث
٢٩- مصطفى الرابع
٣٠- محمود الثاني
٣١- عبد المجيد الأول
٣١- عبد العزيز
٣٣- مراد الخامس
٣٤- عبد الحميد الثاني
٣٥- محمد رشاد
٣٦- محمد وحيد الدين
٣٧- عبد المجيد الثاني آخر خليفة

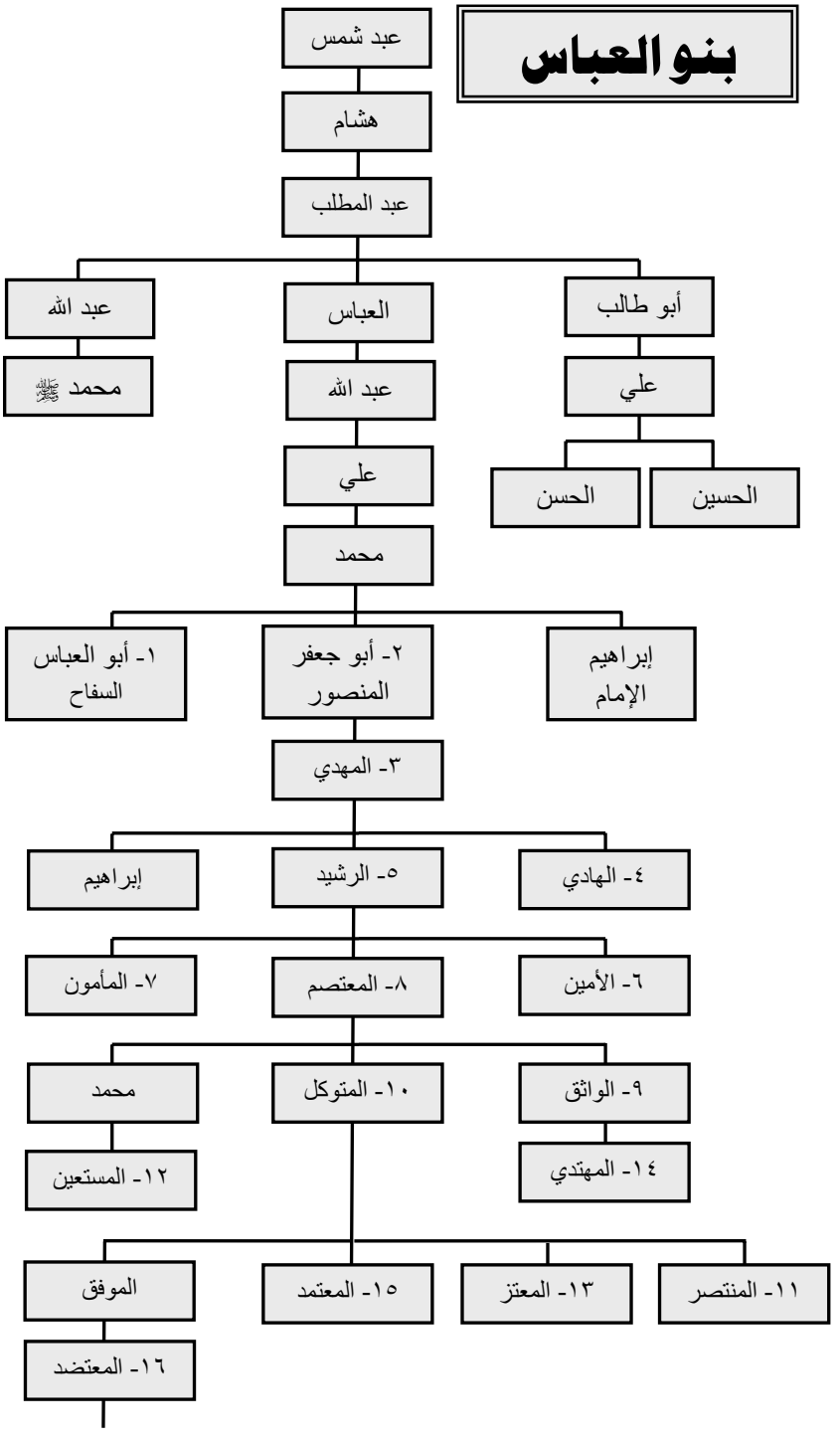
بنو العباس
عبد شمس
هشام
عبد المطلب
أبو طالب
العباس
عبد الله
علي
الحسين
الحسن
عبد الله
محمد ﷺ
علي
محمد
إبراهيم الإمام
٢- أبو جعفر المنصور
١- أبو العباس السفاح
٣- المهدي
٤- الهادي
٥- الرشيد
إبراهيم
٦- الأمين
٨- المعتصم
٧- المأمون
٩- الواثق
١٠- المتوكل
محمد
١٤- المهتدي
١٢- المستعين
١١- المنتصر
١٣- المعتز
١٥- المعتمد
الموفق
١٦- المعتضد

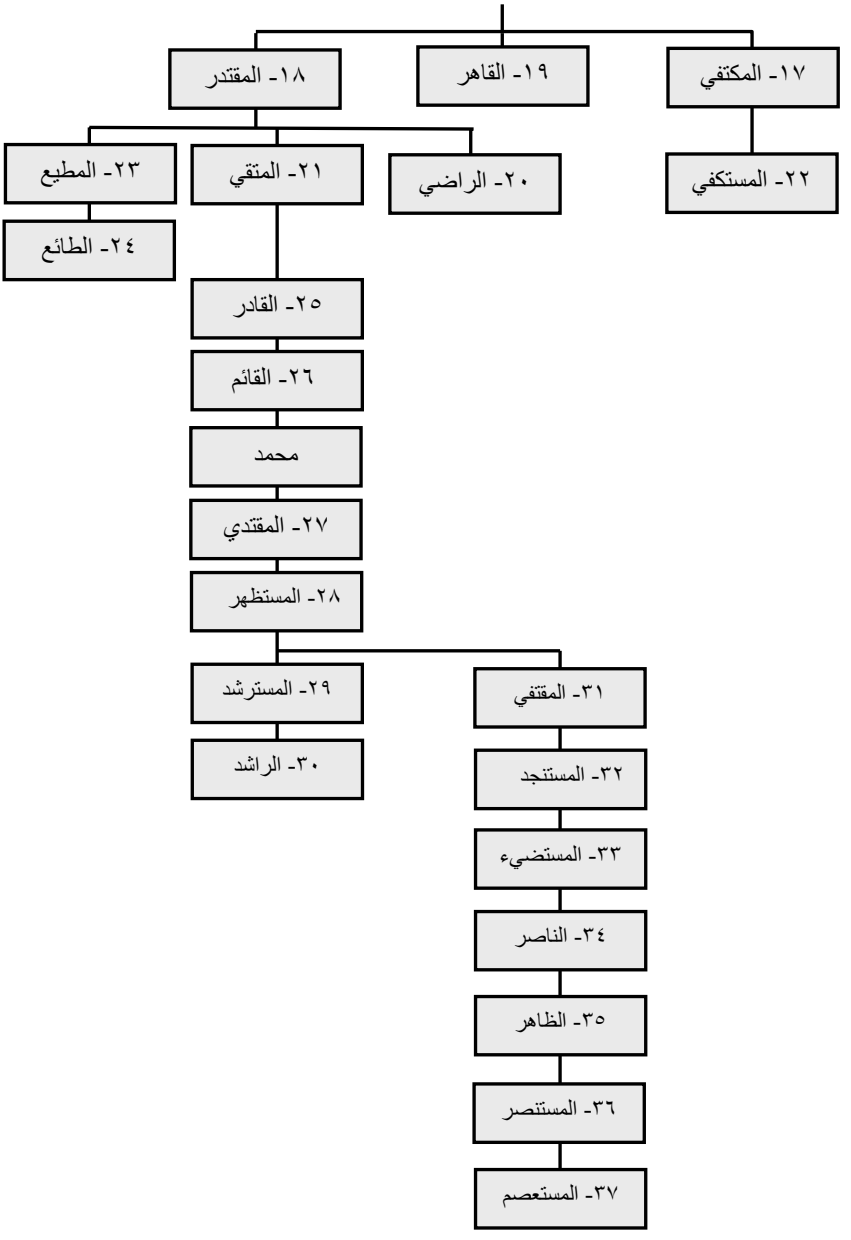
١٧- المكتفي
١٨- المقتدر
١٩- القاهر
٢٠- الراضي
٢١- المتقي
٢٢- المستكفي
٢٣- المطيع
٢٤- الطائع
٢٥- القادر
٢٦- القائم
محمد
٢٧- المقتدي
٢٨- المستظهر
٢٩- المسترشد
٣٠- الراشد
٣١- المقتفي
٣٢- المستنجد
٣٣- المستضيء
٣٤- الناصر
٣٥- الظاهر
٣٦- المستنصر
٣٧- المستعصم

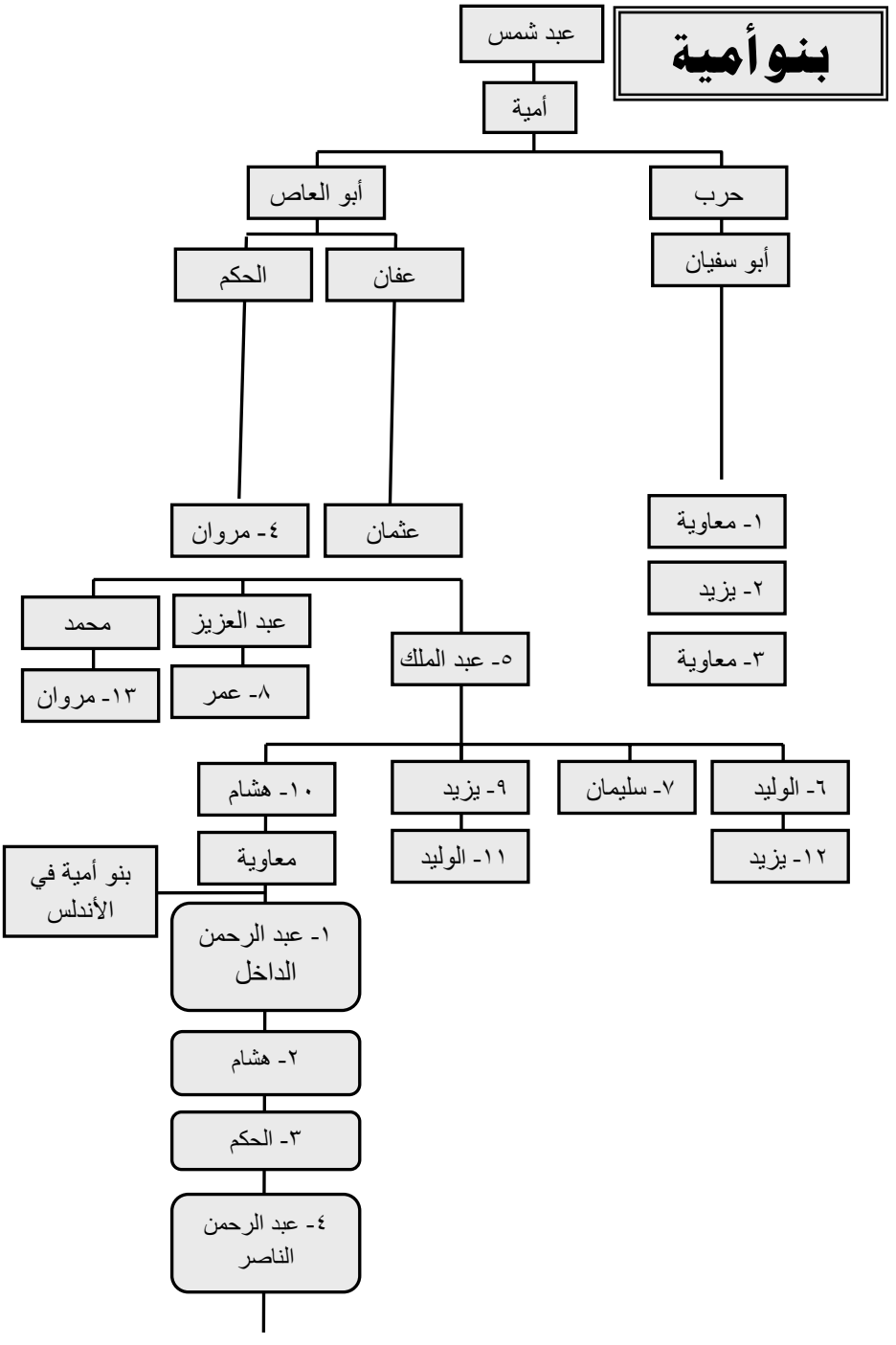
بنو أمية
عبد شمس
أمية
حرب
أبو العاص
أبو سفيان
عفان
الحكم
١- معاوية
٢- يزيد
٣- معاوية
عثمان
٤- مروان
٥- عبد الملك
عبد العزيز
محمد
٨- عمر
١٣- مروان
٦- الوليد
٧- سليمان
٩- يزيد
١٠- هشام
١٢- يزيد
١١- الوليد
معاوية
بنو أمية في الأندلس
١- عبد الرحمن الداخل
٢- هشام
٣- الحكم
٤- عبد الرحمن الناصر